أحلام الأوركيدا

أحلام الأوركيدا (رواية)

دلندا محفوظ الحسن (كاتبة أردنية)

رقم الإيداع لدىٰ المكتبة الوطنية الأردنية

(2015/12/5948)

ISBN: 978-9957-625-74-0

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوىٰ مصنفه

ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرىٰ

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر بموجب عقد

الطبعة الأولىٰ 2017

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS

المدير العام: جعفر العقيلي

ش. الملكة رانيا، عمارة البيجاوي ط3، بجانب صحيفة «الرأي»

نقال: 776724366-797162720-777299266 (00962)

تلفاكس 65620722 (00962) ص. ب 713680 عمان 11171 الأردن

alaan. publish@gmail. com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

دلندا الحسن

أحلام الأوركيدا

روايـة

«تعرفون اسمي، ولا تعرفون قصتي . .
تعرفون ماذا فعلت، ولا تعرفون الظروف التي مرَرْت بها،
فتوقفوا عن الحكم علي، وانشغلوا بأنفسكم»

ألبير كامو

عـــبـــر الـــزمـــن

من سحبٍ
طوّقت صفحةً من عنق السماء المتعالي
انفرطتْ متتالية
بلوراتٌ ثلجية
تهاوت برقّة ودلال
على كفّي الممدودة من النافذة،
دغدغتني بنعومة،
انتظرتُ حتى تراكمتْ حول البيت.
تناولتُ معطفاً كبيراً وطاقية صوف،
لن تصدقوا ماذا وجدت في الخارج!
برعماً صغيراً أخضـر ينتفض بقوة من بين الثلوج
غدوتُ محاطة من جميع الجهات بعشـرات البراعم،
كل عودٍ يطولُ أكثر وأكثر وأكثر، وبسـرعة
لتتفتح زهرة كبيرة غريبة في نهاية الساق الشامخة، تليها أزهار صغيرة..

إنها هي..

أنا متأكدة..

أوركيدا،

زهرة الأوركيدا في الثلج؟!

مستحيل!

لا أدري كم لبثت متجمدة، أتأمل المشهد الفريد،

بلعت ريقي مرتين، وضحكت مرات،

جثوت على ركبتي،

أريد لمسها، مددت يدي وتراجعت،

أصابعي تحرقت برداً، ولهفة،

لم أحتمل جمالها.

بكفّين مرتعشين، حضنت ما استطعت منها،

تملّكني إحساس بدغدغة في أصابعي ورأسي..

ما هذا؟

نبتت أوركيدات جديدة

نمت من جلدي، وعلى جسمي،

ناديتُ جهراً؛ يا رب!

الندفُ الثلجي توقف،

ضـياء اندفع من الأرض، شقّق الثلج،

فتوقفت عن النمو، وبدأ لونها يزداد دكونةً..

كفقاعات انفجرت، لتتلاشى في الفراغ، ناثرة غباراً ملوناً

امتلأت عيناي به، فلم أعد أستطيع فتحهما

أمسكت رأسـي بيديّ

وناديت همساً؛ يا رب!

تحولت إلى جسم أثيري،

بحثت عن نفسـي..

روحي محبوسة داخل زهرة الأوركيدا..

خرجت من شق صخرة مغروسة وسط هضبة، في جزيرة

شـرقُها وادٍ فسـيح لا نهاية له من الأوركيدات اليانعة..

وغربها ساحلٌ تقترب منه سفينة فكتوريا.

هواء جاف. غيوم بعثرتها رياح من الشمال. قرص شمس ذهبي يرسل أشعته لتنحني بإجلال أمام السفينة الملكية المعتقة برائحة الورد الذي كان وسيكون.

أنتظر بلهفة قدوم السفينة، أرصدهم من بعيد.

سترسو بعد دقائق في مرفأ بحري للجزيرة، سفينة كبيرة بحجم أحلام الملك الذي لا تغيب عن إمبراطوريته الشمس. نقش على أحد جانبيها بحروف لاتينية بارزة اسم فيكتوريا، تيمناً باسم جدته واستكمالاً لحملاتها السابقة في جمع زهرة مميزة جداً.

امتلأت أحشاء السفينة بالأدوات والصناديق، مع مجموعات بشرية متكومة من الأصقاع كافة، متلاصقة ظهراً بظهر، لا يستطيعون الحركة إلا بصعوبة بالغة.

في إحدى تلك الغرف المعتمة، انكسر شعاع رقيق من النافذة الدائرية الصغيرة، المغروسة في الجدار، على وجه الجد أحمد، الذي جلس مكوِّراً جسده الكبير، ضامّاً ساقيه بيديه الغاضبتين، ملصقاً أنفه بـ«قنبازه»[1].

رمل حار ناعم، يطفئ لهيبَهُ تتابعُ الأمواج الناعسة التي ترتخي على شاطئ جزيرة مدغشقر، ذلك الذي تتموج رماله عند التقائها مع الماء

(1) القنباز: الثوب التقليدي للرجال في فلسطين.

كشعر مجعد لحورية منسية، تتدحرج عليه ثمار جوز الهند الناضجة، تجري مع انحدار الأرض تحت الظلال ونحو الماء.

انتصفت الشمس في مدارها السماوي فوق رؤوس الجميع، تتحسس ملامحهم بأشعتها المتوهجة، تتابع بشغفٍ الأمتعةَ، تهبط سلالم السفينة محمولة على سواعد قوية للرجال، تتداخل ثرثراتهم مع أصوات النوارس المحلّقة بخفة في الأفق، لتنطلق جميع الأصوات نحو الفضاء وتذوب في الكون، ليصيدها صامت أشنف سمعه للحقيقة.

الأجساد تتجه نحو اليابسة، تلتهم المسافات بشراهة طمعاً بالخلاص، تنصت الشمس إلى صوت القبطان يوجه تعليماته للجميع.

ختم القبطان حديثه بجملة واحدة، صاكّاً على أسنانه:

-لا أريد أن تبقى أيّ زهرة على الجزيرة. انطلقوا، في كل الاتجاهات.

لم يفهموا طلاسم لغته الغريبة عليهم. أدركوا، وهو يشير بالمنجل على صورة للأوركيدا، الغايةَ والمطلوب.

المناجل ذوات النصل الحديدية المعقوفة تتلقفها الأيدي. بخطوات واسعة يتقدم الجد أحمد متناولاً أحدها، صدره يتهدج بالآهات هاتفاً بالخلاص، فما عادت روحه تتحمل الفراق، الشمس تلسعه من الخلف بحرارتها، فيخلع قمبازه بعد أن فكّ عقدته استعداداً للعمل.

أنا روح في جسد الأوركيدا على الهضبة الوسطى، حاولتُ جاهدة أن أُنادي على الجد أحمد صاحب الكوفية، لأدلّه على وادي الأوركيدا في الجهة الشرقية من الجزيرة، لكنه لم يسمعني.

فكرت في حيلة، فنشرت عبيري نحوه.

أريجُ عبقٍ قاده بلا وعي إلى الوادي الواقع شرقاً. وصل الهضبة وانحدر نحو شريط من الغابات المطيرة، تجلت بعدها بجلال مهيب أوديةُ الأوركيدا، تردد في الإقدام والحزن يسحق قلبه، طالباً من الله المغفرة لما سيلحقه بها، لكن لا مفر، عليه إنجاز العمل ليعود لأسرته، كلما تذكرهم تمور الدماء في عروقه، ونار جامحة تأكله، وطاقة كبيرة تتعاظم في ساعديه، ضربة من اليمين وأخرى من اليسار، لهاثه ما بين شهيق وزفير، يتردد صداه في الوادي.

كلما ضرب عنق زهرة، أغمض عينيه لتفرّ الدموع، تتطاير في السماء منقسمة إلى دمعات أصغر فأصغر، تبلل بتلات الأوركيدا من حوله لتبدو هي الأخرى باكية على حاله وحالها، استمر بضرب أعناقها بهذيان محموم. عبست الشمسُ بغروبها، الليل ينشر حبره على السماء الصافية، والنجمة الأولى تلمع في عتمة مسرح الفضاء. الجد أحمد ممدّد

على الأرض بالقرب من الصناديق الممتلئة بالأوركيدا، منجله على صدره، وستائر السماء تنكشف لحظةَ وداع زوجته.

عيناه تجحظان وهما تجترّان المشهد عندما حضرت تلك السيارات المتوحشة، تجمع الرجال قسراً لجوفها، خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين.

يمناه تمسك الفأس، يسندها إلى كتفه العريضة، حبات عرق ممزوجة برائحة البرتقال والزيتون تكلّل جبينه الأسمر الذي قبّلته الشمس، كوفية تظلل رأسه، عين تحفظ في ذاكرته لحظة الوداع، أنف يملأ حواسه برائحة تراب الحقل، شهيق قوي يُسُكر عقله فترتعش يده.

التفت نحو بيته مُرٌخياً فأسه عند العتبة، تسمرت جوارحه، تتقدم زوجته نحوه ليقبّل جبينها ويتنفس عبيرها، وتجري ابنته الصغيرة لتحضنه بلهفة.

هي انتفاضة أرض، قهر وغصة شهقت بها أرواحهم، احدودبت الأرض من تحتهم، ما بين حضن ودمعة وداع كجبل متراصّ.

مدت الطفلة الصغيرة خديجة يدها نحو أبيها قائلة:

– أبي، خذ هذه الأزهار، أعطها لهم، لا تسافر، وابقَ معنا.

أخذ يتلمظ الذكرى من خياله، شعر بغثيان، وصداع شديد يفتت رأسه.

خطوات قاسية لأحذية قادمة نحوه تدوس على شريط الذكريات لتمزّقه، يتحلّق القبطان ورفاقه البحّارة حول نار أشعلوها بالقرب منه، تحت سماء النصر.

استمعتُ إليهم باهتمام وهم يتحدثون.

استطردوا بحديثهم عن الأوركيدا، برم القبطان شاربه الأبيض وعدّل نظّارته فوق أنفه الأفطس.

وَجّهَ حديثه لرفاقه قائلاً:

- ماذا ستفعلون بحصصكم من زهرة الأوركيدا العظيمة؟

أجاب أحد الجنود بصوت متحشرج:

- أريد أن أصنع من براعمها الصغيرة، شرابَ الحب لي ولزوجتي، حتى يمنحنا الله الولد الذي لطالما حلمت به، انقضى على زواجي خمس سنوات، نفد صبري. هذه رحلة عمري، لأن البراعم الكبيرة يُصنع منها شراب الحب الخاص لإنجاب الإناث.

قاطعه جندي يجلس مقابله ملوّحاً بإحدى الإوركيدات:

- كان جدي ضمن الجنود الذين عينتهم الملكة لحراسة حدائقها المزروعة بالأوركيدا. اختارت طاقماً خاصاً من أمهر المزارعين والعمال ليعتنوا بها.

وقال أحد الجنود:

- رُصدت جوائز خيالية للرحّالة، وأقيم يوم وطني لصائديها نُظمت فيه مسيرات عسكرية للنجاح الذي حققته. وَوُزعت الأوسمة على الأبطال. وأُحضر أشهر الرسامين من أوروبا لرسم زهرتها المفضّلة.

رفع القبطان رأسه ناظراً للأعلى بزهو:

- جدي هو أول بحّار بريطاني يحضر أزهار الأوركيدا من جزر الباهاما عام 1732، ثم واصل والدي المسيرة، وأحضر أجملها من الصين، ومن جزر الإنتيل خصيصاً، لتُزرع في الحدائق الملكية الإنجليزية، إلا أن الإسبان سبقونا بإدخال سحلب الفانيلا بعد إحضاره من موطنه الأصلي في المكسيك.

وقال جندي آخر:

- أريد أن أتزوج. خطيبتي لن تُتِمّ مراسيم الزفاف إلا إذا أحضرتُ لها الأوركيدا تميمةً لزفافنا.

يضحك الجميع وهم يهتفون: فكتوريا.

الجد أحمد قلق، يفكر بمعجزة تنقذه من محنته، أحاول أن أهدهده لينام، أحرِّك النجوم أمامه، يَعُدُّها بالتتابع، أُشكلها برسومات لينصهر في دورانها، وينام.

توالت الأيام وانتهت المهمة، السفينة تتهادى بخيلاء على ماء المحيط، بما تحمله من صناديق مُلئت بأغلى زهرة عرفتها الإنسانية، تاركة خلفها على الشاطئ شواهد حجرية صمّاء، لأرواح بُذلت في سبيل الرحلة الملكية، لاقت حتفها بسبب عراك دامٍ مع سكان المنطقة، أو قتال مميت مع طائر الشبنم.

.

.

وعند أول يابسة في رحلة العودة، قُذفت بقية الأجساد البشرية.

رحلوا، وبقيتُ وحيدة على الهضبة، هبّتْ رياح عاتية، انكمشتُ في جوف الأوركيدا، وأخذتْ بتلات الزهرة تتطاير، مع بلورات الثلج المتناثرة، على طول المدى، تختلط بتراب الغابات، لتنبت من جديد أوركيدات طازجة في الوادي.

استيقظتُ والأفكار تطوف في خيالي المرهق، بعد أن قام جسدي الأثيري بالانفصال عني، ذاهباً في تجربة الخروج من الجسد، والسفر عبر الزمن، قاطعاً المسافات بالإسقاط النجمي، باحثاً عن جواب واحد لأسئلة كثيرة.

«العشق لا يختصّ بالإنسان، بل يسري على كلّ الموجودات من نبات وحيوان والفلكيات والمعدنيات، وهو كالحُسْن لا يُدرَك»

من رسالة ابن سينا في العشق

«ليِ جدّةٌ ترأفُ بي، أحَنُّ عليّ من أبي
وكل شيء سرني تذهبُ فيه مذهبي
إنْ غضبَ الأهل عليّ كلهم لم تغضبِ»

أحمد شوقي

يا ملاكي!

«كم درتُ حـول الحـبّ حتىٰ لقـدْ
حصلتُ فيـه كحصـولِ الفـــراش
تعشـو إلىٰ الوصــل دواعـي الهوىٰ
كما سـرىٰ نحـو سنـا النـار عاش»

حلّقتْ أبياتٌ من كتاب طوق الحمامة، بيضاءَ حالمةً في خـاطري وأنـا في طريقي إلىٰ الجدة أم مصطفىٰ، للتنزه معها بعد صلاة العصـــر، كعـادتي كل يوم.

فتحت صفحتي الخاصـة عـلىٰ الفيسـبوك مـن هـاتفي النقـال، دونـتُ وشوشات خواطري قبل أن تطير، وانتقلتُ للمشـــي عـلىٰ الرصـــيف قبل أن تطيّرني إحدىٰ السـيارات المتهورة.

الآن اقتربوا مني قليلاً. سأخفض صوتي لأحدّثكم بسـر.

بصـراحة، أم مصطفىٰ هي جدة أمي!

نعم، إنها أمّ جدتي.

لا تجحظوا عيونكم وتفتحوا أفواهكم علىٰ مصـراعيها، غير مصدّقين.

أعرف أنكم لم تتوقعوا ذلك. فجدتي وأمي تزوّجتا في سن مبكرة جداً، لذلك وصل جيلي إلى كنف جدة أمي.

أعلم أنه تفسير مضحك.

بنظره ممزوجة بالتعجب والشفقة، رمقني أحد المارة عندما افترت مني ضحكة هوجاء، وأنا أتخيل سلسلة الأجيال المتتابعة.

على كل حال، لن تتخيلوا حجم محبتي لجدتي أم مصطفى، الذي يفوق بكثير حبي لجدتي والدة أمي. أرجو الله ألّا تعرف السر الذي أخبرتكم به حتى لا تغضب مني.

«تاتا»، كما أحب أن أناديها، سيدة مرهفة جداً، فيها من الحنان الإيمان والتسامح ما يكفي ليغمر الكون كله، يمنع الحروب ويطفئ وهج الغضب.

هي هادئة بطبعها، صوتها عذب فيه انكسار عجيب لا أعرف سره. والأهم من ذلك، صبرها على شقاواتنا في تباشير الطفولة، فلم أرها قط توبخ طفلاً أو تضربه، على خلاف جدتي، فجدتي حادة المزاج، صارمة كشرطي، ذات شخصية عملية إلى حد الملل.

عندما انعطفتُ إلى اليمين من شارع حسني فريز، باتجاه شارع ابن حزم الأندلسي، حيث يوجد المنزل الذي تسكن فيه مع عائلة ابنها

مصطفى، نسنس هواء عليل ممزوجٌ برائحة أشجار الصنوبر، تعبَقُ به نسمات جبل اللويبدة؛ قلب مدينتي عَمّان.

تخرج برفق من البوابة، فألمح طرف ثوبها الشروقي بتاريخ تطريزه الكنعاني. ذابت فيه ألوان الطبيعة واستحالت إلى خيوط مزهرة بالألوان، ليتفتح الربيع بديمومة على ثوبها كحلقةٍ وصل مع ذكرياتها، ومصدر أمان لروحها.
أقرأ أبعاد مزاجها من مساحة التطريز، فإذا انحسر على أطراف الكُمَّين والقبة بأشكال صغيرة، واكتسح اللونُ الأسود حقلَ ثوبها، كان ذلك نذيراً لسحابة حزن في الأجواء، تتساقط بعدها أمطار حنينها، ليزهر الثوب من جديد بالأزهار على امتداده، تزينه وتزدان به.
تعدّل شالها الأبيض الطويل المتطاير، تجمع فيه خيوط النور، تلفه حول رأسها ليغطي الجبين والذقن ليصل إلى الشفة السفلى، تاركة مساحة خجولة للعينين الزرقاوين، لينسدل برقة على جسدها الصغير، يتوسطه أسفل الصدر الممتلئ نطاقٌ عريض، حريريُّ الملمس، مُقلَّمُ الخطوط.
تشمخ بقامة قصيرة سُكبت فيها روح عظيمة خالصة، ما كَلّت من الذِّكر والتسبيح.

أوركيدك الذي طلبتِه وَصَل

بعينين طيبتين استقبلتني، فألقيتُ التحية:

– السلام عليكم يا «تاتا».

أُقبّل يدها بشفتي وجبيني، بحركة متتابعة ثلاث مرات. تمسد بيدها الأخرى على شعري، تدعو بصدق وحنان:

– *الله يرضى عليك يا حبيبتي، الله يرضى عليك يا ستي.*

استدرنا باتجاه حديقة دوار المتنزّه، التي تتوسط المساحة بين مبنيي المتحف الوطني للفنون الجميلة. أبرمج خطواتي لتتناسق مع خطواتها. تعتصر أصابعي الممسكة بيدها، ونحن نقطع الشارع لترتخي قليلاً عندما نلج الحديقة.

نمشي بهدوء، فلا أفتعل معها حديثاً، أخشع في حضرتها. رنة لذيذة تدندن بها حباتُ مسبحتها الخضراء المتساقط بعضها فوق بعض، تنتظم في دورانها بين أصابعها مع أنفاس التسبيح.

أراقب الأطفال يركضون، وأمهاتهم يستظللن بالأشجار، تتداخل هتافاتهم مع حفيف أوراق الشجر، تلاعبها يد الريح لعبتها الأخيرة، قبل أن تتساقط مع رقصة الخريف الأولى.

في الساحة فتيات صغيرات بعمر الفرح، كمشن من صندوق الكون الشمسَ والقمرَ والكواكبَ، التي استسلمت طوعاً للّعب معهن برضى وحبور. الفتيات يتقافزن برشاقة في لعبة الحبل، لتغدو أطياف فساتينهن الملونة زمرة من اللون الأبيض، وهن يرددن بنغمة واحدة:

«شَبَرة.. قَمَرة.. شمس.. نجوم.. كواكب.. مراكب.. شَبَرة.. قَمَرة».

بين نخلتين في زاوية أخرى، ولدٌ صغير عيناه تسألان بدهشة عن سر ذرات الرمل الناعمة، كأن سديم الكون تجمع في قبضته الصغيرة التي تفرّ منها الذرة تلو الأخرى. ويوم تفر تلك الدهشة البريئة من الروح، تغدو الحياة أشبه بكومة رمل.

فراشات تحوم حول وميض الإنارة، تتحلّق قرب عمود الإنارة أيدٍ صغيرة، تمد القروش نحو البائع الأسمر الذي تتدلى من عصاه الخشبية قطوفٌ شهية من حلوى غزل البنات. ينادي على الأطفال بصافرته، ناشراً بلحنها العذب ألوان المرح، باعثاً في النفس الحنين للطفولة.

لا أستطيع مقاومة هذه الحلوى. أمارس طفولتي المتأخرة وأشتري كيساً. بضربة واحدة من قبضة يدي، أثقبه مُحْدِثةً ضجيجاً كالانفجار، لتخرج غيمةٌ وردية سكّرية.

أطبقتُ الجفن على الجفن لحظةَ حشرتُ فمي بلقمة كبيرة، أستخلصُ منها الحلا الذائب مع اللعاب على لساني، لتغمرني لحظة سلام وأنا أراقب الفتيان يلعبون «الزقيطة»[1] في الساحة، يجرّون خلف بعضهم، يلهثون ويصرخون.

المشاهد نفسها تتكرر في كل مرة أتنزه فيها مع «تاتا». لكن في العام الماضي، مع بداية فصل الخريف، بدّد استمتاعي بالحلوى رنينُ هاتفي النقال، حاولتُ عبثاً إخراجه بأصابعي الدبقة من حقيبتي الممتلئة بالأدوية.

جاء صوتٌ مألوف:

- مرحباً

- أهلاً تميم.

غلف الترقب الثواني التالية، استطرد يتهجّى الكلمات:

- شيرين، أوركيدك الذي طلبتِهِ.. وصَلَ.

- حقّاً! شكراً لك.

- سأغلق المحل الساعة الثامنة. أنا بانتظارك لا تتأخري.

(1) الزقيطة: لعبة الاستغماية.

ضممت الهاتف لصدري المتهدج بالضحكات العالية الرنانة. دُرت حول نفسي بلا وعي لينتهي بي المطاف باصطدام رأسي بجذع شجرة سرو، فتكومت على التراب. أحسستُ لحظتها أن أنفي انحرف عن وجهي.

من بعيد تبسّمت «تاتا» بعذوبة مع نصف إغماضة لعينيها، كزهرةٍ في أول تفتحها.

قالت:

-*وَقّفي يا شيرين على حيلِك، مالِك يا ستي، يا حبيبتي، عم تِتْرَقْوَصي زَي الزغار؟!*

نفضتُ التراب عن وجهي وملابسي وأجبت:

- «تاتا» يا «تاتا»، أنتِ حبيبتي وعمري وحياتي.

تغريدي بالحب على مسامعها، رسم الحيرة والدهشة على نظراتها. واصلتُ حديثي بأنفاس متقطعة لاهثة، بجملٍ متتابعة:

- قبل شهرين طلبتُ من تميم أن يحضر لي زهرة مميزة اخترتها من كاتالوج خاص من متجره. واليوم وصلتْ.

ولأنها تعلم أنني لا أهتم بنباتات الزينة، سألتني باستغراب واضعةً كفّاً على كفّ أسفل صدرها:

– *وشو اسمها هاي الزهرة يا ستي؟*

نظرتُ للأفق أتابع عصفورين حطّا على سلك الكهرباء الممتد بين عمودين، يتقافزان عليه كنوتة موسيقية. شردتُ لثوانٍ أستحضر حُلمي لأسرد لها المشهد، محلّقة بيديّ، تعبيراً عن اتساع المدى اللامتناهي من الأزهار:

– منذ شهرين، حلُمت أنني أقف في واد كبير جداً مليء بأزهار الأوركيدا، فقررتُ أن أشتري واحدة، عسى أن يكفّ الحُلم عن زياراته المتكررة و..

زفرت «تاتا» تنهيدةً قطعت كلامي فالتفتُّ صوبها، أحاصر بيدي صرخة تريد أن تهتف باسمها. تراجعتُ خطوتين فزعةً لحظةَ سقطَ نظري عليها.

كَفّان صغيرتان، للواحد القهار مرفوعتان، تمتمت داخلهما بضع كلمات، أطلقَتْها لصدر السماء، تركتُها حتى انتهت من ابتهالها، هالة نور تتوهج حولها، مسحتْ وجهها بكفّيها، ومررتهما على صدرها، عَدّلت وشاحها وأحكمت لفّه، ثم استدارت نحوي.

دمعة كبيرة عند طرف عينها، انعكست عليها زُرقة سماء، ملأتها بالدعاء.

دفعني الخوف إليها، قَبّلتها على جبينها الدافئ قبلة طويلة، ضَمّتني لصدرها تخاف أن يسقط منه شيء. أشارت بيدها إلى الكرسي الخشبي. جلسنا متشابكتي الأيدي، كغصنين ارتعشا من نسيم مفاجئ.

ما هي الحكاية؟

لم أشعر بالكون ولا بأصوات الحياة من حولي، طائر الطنان فَتَّتني بمنقاره قطعاً صغيرة، النمل حمل فُتاتي إلى الشقوق، فلا حول لي ولا قوة، أغوص قطعةً قطعة تحت براكينها المنبثقة من الأرض.
عدتُ إلى الحياة على صفير بائع حلوى غزل البنات، يراقص النغمة الأخيرة بين شفتيه وأنفاسه لذلك اليوم، بعد أن ناول آخر كيس معه للصغيرة، ذات الشريط المعقود على شكل فراشة. كملاك بدت بثوبها وجورَبيها الأبيضين وهي تلوح لأبيها من بعيد، لترتمي بحضنه الذي ينتظر عند الزاوية.

انصهرت مشاهد الحياة مرة أخرى لتتشكل من جديد. طوابير النمل تدب إلى شقوق الأرض حاملة الطعام، أتتبعها بنظري المترهل للأسفل، طائر الطنان يتنقل برشاقة بين التماثيل والمنحونات المنتشرة في أرجاء الحديقة بين الأشجار.

نداءات الأمهات على الأطفال علت استعداداً للرحيل، لتمتزج مع بكائهم الرافض للمغادرة، تستسلم الدراجاتُ الهوائية والألعاب لتخرج من الحديقة بأيديهم الصغيرة، يجرّونها خلفهم مُحْدثةً ضجيجاً ينسحب رويداً رويداً بأمل العودة في نهار آخر.

حتى العصافير التصقت على أغصان مسرح الأشجار، تؤثث المساء بعزف أوركسترا زقزقتِها الكثيفة المتصاعدة.

أكلني الفضول من فرط التعجب لحالة «تاتا» الاستثنائية. أراها ثابتة النظرة، جامدة الحركة، وقد ارتدى وجهها قناعاً قاسياً من الخوف، أنفاسها تتعالى داخل صدرها، وثمة هدير غير مفهوم تحركه شفتاها.

تبعثر السؤال في حلقي. أرجوها أن تتكلم:

– «تاتا» حبيبتي، ما خطبك؟

أسألها مرة أخرى:

– «تاتا»... «تاتا».

أجابت بكلام مشروخ:

– *آه، الله يرحمك يا يابا، ويغمد روحك الجنة يا حبيبي.*

– رحمة الله عليه.

وأخاطبها:

– أرجوكِ، أسندي ظهرك للخلف لترتاحي.

بلعتْ ريقها بغصة، ولمعة كبريق النجمة تومض من إحدى عينيها:

– *أنا يا ستي، دايماً بحكيلك خراريف وحكايات، بس هاي المرة رح أقولّك قصتي. آآه، زماااان كان لأبويّ في قريتنا «مسكة» في فلسطين بيارات، إشي زيتون، إشي برتقان، عنب، زيتون. أبوي*

قوي وطويل كتير، ما في حدا بقوته وجماله، من طلوع الفجر بحرث الأرض، بسقي الشجر، بقطف الثمر، بدير بالو على البيارة، هي روحو وحياتو.

مسحت اللعاب المتشكل حول فمها بالمنديل:

- وين وصلنا يا شيرين.. يا حبيبتي.

- عن البستان ووالدك.

تكمل حديثها بشهقات متقطعة وهي تحاول إبعاد صخرة السر الثقيلة:

- آه.. أيوه، دايماً كانت تبعتني إمي أودّيلو أكلاتو على البستان، ما ليش إخوة، إمي حملها عزيز، دايماً تطرح، من شان هيك كنت مدللة أهلي، ما أحلى عيشتنا، آآه كانت، لحَدّ ما..

تلعثمت، واعتصرتْ المسبحة بأصابعها.

وقفتُ على أطراف شعوري مترقبةً كلامها:

- أكملي.

ينفتح مجرى دمعها، يتبدل لون وجهها، ترتعش رموشها الناعمة، تعض على شفتها السفلى، تحرك رأسها للأمام والخلف، وبزفرة طويلة حارة تندفع الآهات، سرب من فراشات الكون يهرب من حدقتيها فزعاً، لتغدو بلا لون وهي تقول:

- راح على بلاد بعيدة.

شـرقت بدموعها، ضممتُها برفق، لقد ساءت حالتها بعد مخـاض مـؤلم مع ذكريات لم تغادرها بعد، عيناي تحترقان من الدمع الباحث عن ثقب ليتدفق منه. اتصلتُ براشد، حفيدها مـن ابنهـا مصـطفىٰ، أطلـب منـه القدوم بسـرعة.

كنت وَجَلة، جزعة، مذعورة بأن يصـيبها مكروه بسببي، مـاذا سـأقول لهم عندما يسألونني؟

بدا السؤال حذاءً يضـرب رأسـي.

يا إلهي. أسئلة كثيرة تصـرخ في أذني، تمد ألسنتها في وجهي، تعابير اللوم والعتب تحاصـرني. عندها بدأ الطنين المألوف يتـدرج في الولـوج لأذني كهسـيس الشهب، ورعشة في يدي اليمنىٰ تسـري في عروقـي كومضـة برق.

مرت الدقائق صعبة كامتحان لم أسـتعد لـه، شـاردة في فـراغ إجابـات أسئلته، إلىٰ أن وصل راشد، لم أسمعه وهو ينادي، إلا عندما هـزني مـن كتفي قائلاً بصوت عالٍ:

- شـيرين، ما خطبكما؟

- لا أدري، «تاتا».

- هيا بنا.

كتميمةٍ ترعاني

ظل الهسيس يقترب مني ثم يبتعد، ينخر في شقوق رأسي المتصدعة التي نبتت فيها أعشاب الحيرة والألم. أنا وراشد كل منا يمسك بإحدىٰ يديها، قلبي يطفو ويغوص بين جوانحي، ولا أهتدي ليدٍ تنقذه.

قرص الشمس من يساري يتحرك بين المنحونات، ساعياً ليضع عينه بعيني، أشعتها تمشط الشجر بلهيب العتب، تشعل النار في أشباح العصافير السجينة علىٰ الأغصان.

يسكن روحي طائرُ الشؤم، ينبثق من سحب الشفق الملحمية بلونها الأرجواني، شجرة الصنوبر العتيقة عند زاوية الشارع تبدو مثل فزاعة عجوز، تسدد بأوراقها الإبرية سهامَ الغضب، لتسري نمنمة في جلدة رأسي، يقشعرّ لها بدني كله.

وصلنا أخيراً لغرفتها. بعد أن تمددت علىٰ السرير، تقاطعت نظرتها الغائبة من بين أهدابها مع نظرتي.

تمتمتْ:

- ميٌ، ميٌ.

رطبتُ حلقها برشفتين من الماء، ودثرتها بغطائها القطني. سال خيط رفيع من العرق علىٰ جبينها، فَمسحته بكفّي.

طلبتُ من راشد أن يخرج ويتركني معها. حدثتُ نفسي متعجبة؛ لأول مرة نتبادل الأدوار يا «تاتا»؟ قرأتُ الفاتحة والإخلاص والمعوذات أملاً في أن تنام وتهدأ روحها.

كم مضت من أيام وليالٍ وأنت تُرقينا بيدك المباركة، وها أنتِ بين يديّ لأرقيكِ! لكن السؤال المصر على المثول بلون حالك السواد: ماذا دهاكِ يا «تاتا»؟

كنتُ إذا مرضتُ تقرأ عليّ آياتٍ تحفظها. ترددها، بعد أن تلهج بالبسملة بلا نَصَب، أعرف أنها انتهت عندما تمط شفتيها المزمومتين للأمام، تزفر بعدها أنفاسها الدافئة هامسة:

– *طار الشر!*

أدركتُ أجنحتك يا طائر الشر، تحلّق فوق رؤوسنا لتحطّ رحالك، بالتأكيد إنّ أجنحتك ضعيفة، لأنها لا تصمد طويلاً أمام تراتيلها.

وإذا آلمني بطني كانت تُحضر عجينة خاصة تسميها «اللزقة»، تخلط فيها قليلاً من النعنع الناشف، وحفنة من الطحين، ورشّتين من الحناء، ترطّبها بزيت الزيتون، تمزجها بالحب والرحمة، تدفّئها بكلتا راحتيها الحنونتين، المكتنزتين بالشفاء والبركة، تمسّدها على بطني وتلفّ فوقها

قطعة قماش قطنية بيضاء بإحكام، بعد أن تضع نقطة زيت زيتون بإصبعها على الصرة، لتسري رجفة باردة تحت جلدي.

في الأثناء وصلتني رسالة من تميم إلى هاتفي النقال، ليذكّرني بالموعد. استأذنته أن ينتظر بسبب طارئ خارج حدود قدرتي.

رأيت بأذني طيفاً بشرياً يتحرك خلفي. كهفُ عيني فزعت خفافيشه. ابنها مصطفى وزوجته حضرا ليطمئنّا عليها. النوم تملَّك جفنيها، فخرجنا بعد أن أضأتُ مصباحها الصغير كما تحب. تركتُ عندها وجيب قلبي خافقاً يرعاها داعياً لها بالشفاء، وعينَيّ كُوّتَيْن في حائط الغرفة تحرسانها.

سألني الخال مصطفى:

- ماذا حصل؟ خير يا ابنتي؟!

تكسر زجاج السؤال في أذني ليدمي لساني. همست:

- لا شيء، نسمات الخريف أتعبتها.

طلبت الإذن للخروج، كهرّة تسللتُ زاحفة بخطوات بطيئة، لكن هيهات أن يدعني راشد وشأني. التقطني عند عتبة المنزل، أُخفي نصف جذعي بالباب الخشبي. أتوجس خيفةً من لفتات رأس بومته المريبة الممسكة بيده، البومة ذات الحدقة الوقحة الصفراء.

هتف منادياً:

– شـيري، شـيري.

انتصبتُ أذناي عندما سمعت النداء:

– نعم.

– تناولي معنا العشاء!

– شكراً راشد، أنا مشغولة.

– أريد أن أتحدث معك، ممكن؟

انتفضتُ ضاربة قدمي بالأرض:

– لم أسبب لـ «تاتا» مكروهاً.

رمقني شزراً من رأسـي حتى حذائي ذي الدعامة الحديدية.

قال محتدّاً:

–لا أريد أن أتحدث معك عـن هـذا الموضـوع، مـن المؤكـد أنـك لم تتسبّبي لها بأي مكروه. ما بك؟ كأننا غربـاء؟ لا تتصـرفي كطفلـة و...

شعرت بنافورة من رأسه تقذف حمماً ملونة، فرددتُ عليه بلا مبـالاة لمـا قاله، لكنّ، في داخلي خليط من كل شـيء: قلق، وارتباك، وتوتر.

– أشعر بالإعياء، تصبح على خير.

يستسلم ماسحاً وجهه المحتقن بكفه، مغتاظاً مني:

– كما ترغبين، وأنت من أهل الخير، إعتني بنفسك.

عندما اجتزتُ سور البيت، نظرت للخلف، وكما توقعت، كان راشد ما يزال واقفاً عند الباب ولمعةُ خرزة عينيه الزرقاوين التي ورثها عن جدته أم مصطفى، غامقة كما يحدث كلّ مرة تثور فيها عواطفه.

.

.

كتميمةٍ ترعاني.

ضَعْ وردتَكَ هنا

نعبتٌ بومته، فاصطكّت ركبتاي ذعراً. دسستُ نفسي في أول سيارة سرفيس وجدتها.

بعد ثوانٍ، صرختُ:

- توقف! توقف أرجوك!

دعس السائق على الفرامل بعنف وشفتاه تبرطمان بألفاظ نابية، فقد كاد يدهس أحد المارة.

نسيت حقيبتي، هاتفي، محفظتي، أدويتي.. تخيلوا.

الارتباك بسبب ما جرى لـ«تاتا»، الخوف من بومة راشد، والآثار الجانبية للأدوية التي أبتلعها بلا رحمة، حولت دماغي لخلايا خاوية. هذا الخليط المُسْكر أفقدني التركيز، فخرجتُ فاقدة الوعي.

عدت أدراجي وإذ براشد عند أول الدخلة يلوح بها. سحبتها بقوة من يده من دون تعليق أو كلمة شكراً، وركبت سيارة أجرة إلى متجر (جولي) للأزهار عند دوار باريس، فلا وقت لإنتظار السرفيس.

تساءلت؛ لماذا تغيرت حال «تاتا» وانتكستْ صحتها، بمجرد إخبارها عن الأوركيدا؟ من المؤكد أن في الأمر سراً أتعبها استحضاره.

ظل سائق سيارة الأجرة يتحرك بنا من شارع إلى زاوية، ومن زاوية إلى شارع، كأننا سنعرج إلى صدر السماء الحاني، انحرفت المركبةُ برشاقة عن يمين الطريق نحو شارع كلية الشريعة الذي تفترشه ظلال أشجار السرو المسائية الكثيفة، تتلألأ وسطه مصابيح الإنارة، كأذرع سماوية متدليّة بانتفاخ متوهج، ترمي بضوء رقيق ينعكس على الفواكه المنبسطة، راسماً تجاعيد وجوه المارة، مشعلاً الضحكات على ثغور الجميلات.

جبل اللويبدة لا أقفالَ على أبوابه، مفتوح ككتاب أقرأ فيه أخبار الأهل والأصدقاء.

نزلتُ باتجاه المحل. شبحُ تميم يقف عاقداً يديه أمام صدره. حاولتُ تركيب ابتسامة بلاستيكية على وجهي لأخفف من وطأة الموقف.

قلت بكلمات مخنوقة:

- مرحبا تميم.

ظل صامتاً يتفرس ملامحي. وهو يعبث بلحيته السوداء. لم أكن الفتاة نفسها، التي ردت عليه بحماسة قبل ساعات.

رد التحية:

- أهلاً، ما بكِ شاحبة اللون؟

- «تاتا» توعكت قليلاً، وبقيتُ لأطمئن عليها مع راشد.

- راشد؟ آآه، هل عاد من لندن؟!

- نعم. حضر قبل يومين في إجازة سريعة كالعادة. أخبِرْني، لماذا أنت متعجل لإغلاق المحل؟
- أريد أن أكمل كتابة بحث لمادة الصحافة الإلكترونية، فأستاذ المادة صعب المراس، وتخرُّجي هذا الفصل. على كل حال، لا تشغلي بالك. سأُحضر الزهرة من الداخل. بعد إذنك.
- تفضّل.

اختفى طيفه خلف الباقات، وبقيتُ وحيدة أفكر. ذهني نهرٌ عَكِر، أُلقيت فيه حجارة القلق كلها، الدنيا بلون رمادي رغم كل أزهار الربيع من حولي، تجولتُ بينها بتوتر حتى وجدت ورقة ملصقة على الجدار بعناية حيث يجلس تميم، دُوِّنت عليها قصيدة طويلة بخط اليد، مطلعها:

«تحت المصابيح وأضوائها المستعارة، أُخاصر شجني
أحدّثه عن قمر خبأته خلفَ تلة صيفية، عن حب تركته واقفاً عند شباك العتاب».

اقتربتُ من الورقة أكثر، أتابع القراءة بشغف، استوقفني مقطع جاء فيه:

«فاصنعْ بنفسك ما تريد
وارْتدِ ما شئتَ من أقنعة

لست سوىٰ شاعر غارق في الحب، حائر بين الفراشة وقصـيدتها، بـين القبلة وجملتها، بين الحياة واستعاراتها
ابتسم إذاً، لا يعيبك حبٌّ ولا ضحك، هل يوجد ما هو أجمل من الحب تحت الخطر،
يجيء مباغتاً كشتاء مبكّر في صـيفٍ من حرائق،
الحب أجمل، دائماً أجمل».
المقطع الأخير دفعني لألتقط له صورة عبر هاتفي النقال:
«أمد يدي صوب وردة في سور الغرباء، يعترضني ضـريح جديد.
ضع وردتك هنا،
قتلوني قبل صـياح العطر في عنق رضـيعي..
ضع وردتك هنا،
لم أكتفِ من رائحة أهلي،
وامضِ غريباً يحب الغرباء..
يا الله!كيف تصلح الـوردة للحـب والجنـائز، للحيـاة والـردىٰ، لمـيلاد الجلادين وأضـرحة الشهداء؟»
تنحنح تميم. التفتُّ صوبه أطلب منه مشـيرة بإصبعي نحو الطاولة:
– ضع وردتك هنا.
وضعها بهدوء وقد لانت ملامحه القلقة وتغضنت عيناه بابتسامة رضى، ثم سألني:

- هل أعجبتك القصيدة؟
- نعم، جميلة.
- إنها قصيدة للشاعر زاهي وهبي، من ديوانه «يعرفك مايكل أنجلو». هل نسيتِ أمسيته «لمن يهمه الحب» مع المطربة مكادي النحّاس، حضرناها معاً مع أختي رهف العام الماضي، في مركز الحسين الثقافي؟
- صحيح. تذكّرت.
- ما رأيكِ بأغلى وأقدم زهرة في الوجود؟

خفق قلبي فرحاً بروعتها الساحرة.

واصل تميم:

- عندما تنسّقين زهرة الأوركيدا عليك اتباع القاعدة الذهبية، ترك الزهور على طبيعتها دون بذل أي محاولات لتشبيتها عنوة في أوضاع بعينها، إذ إن الأفرع المحمّلة بالزهور، تميل وتنحني على الإناء أو المزهرية، مما يمنحها جمالاً غير مفتعل. كما إنها لا تجتمع مع أنواع أخرى من الزهور. كل ما تحتاجه هو بعض أوراق خضراء تُناسب شكل التصميم والإناء الذي توضع فيه و...

يشرح محاضرته بإخلاص متفانٍ كأستاذ جامعي، وأنا هائمة أتلذّذ بلونها الرائع وشكلها الفريد. حلمت قبل فترة بوادٍ لا ينتهي من

الأوركيدا اليانعة، لكن واحدة منها، واحدة تزهر في يدي، ليلكيّة اللون، طويلة، نضرة، عطرة، خلابة، فهل ستكفّ أيها الحلم عن الحضور، أم إن هذه هي بداية النهاية، أو نهاية البداية.

- شيرين، شيرين.

قطع عليّ لحظَة اللقاء والتفكر.

- نعم؟!

- أين أنتِ؟ هل عندك إناء أم ستشتري واحداً؟ لأن الأوركيدا تناسبها آنية البورسلان والمزهريات المعدنية، لكني أفضل الإناء الشفاف الزجاجي، الممتلئ بالماء، حيث تُترك عائمة، لأنها زهرة قوية تتحمل المياه لفترات طويلة.

- سأشتري إناءً شفافاً.

ارتعشت يدي، وانتبه تميم لخلجاتي، سألني بحزم:

- لماذا لم تذهبي لجلسة العلاج الطبيعي الأسبوع الماضي عند أختي رهف؟

- لا شيء، انشغلت بالجامعة.

- شيرين، ما خطبك؟

- لا شيء، سأتصل بها وأحدد موعداً.

- هل تفضّلين أن تكون الجلسة في بيتك؟

- شكراً.

- لا شكر على واجب. سأوقف لك سيارة أجرة توصلك للبيت، فالوقت تأخر.
- لا شكراً، سأتدبر أمري. إلى اللقاء.
- مع السلامة.

التقت أصابعنا من غير موعد لحظةَ تناولت منه الإناء، توترت، الهسيس يتأجج، لكن لا كلمات في حلقي، شكرته بإيماءة من رأسي دون النظر نحوه، ووجهتي للبيت.

هكذا هو تميم، أوامر وتعليمات، صح وخطأ، يتكلم ويتصرف بجدية مفرطة تجعلني أنكمش وأحذر منه. رغم موقفه النبيل لأتخطى محنتي، إلا أنني ضقت ذرعاً من مبالغته في فرض الأمان والاهتمام. كما إنه بدأ يردد جملة جديدة، إلى جانب إرشاداته المدرسية عندما ناولني كتاباً بعنوان «الحرية النفسية»:

- شيرين.. اخرجي من قوقعتك.

.

.

هذا ما كان ينقصني!

باريس.. عمّان

انجذبت للأفق، قشرة داكنة تغلّف السماء التي امتلأت بالثقوب، تختلس النجوم منها النظر، تصحو من النوم لتشعل فتيل مصابيحها في عين العتمة.

الوحدةُ، فصلٌ خريفيّ بامتياز مع مرتبة الضجر.

الوحدةُ، قرارٌ واختيار.

عندما يتملكني هذا الشعور، أتنفس بعمق متأملةً الحياة، أطرق سمعي وأصغي للكون، لحظَتها أسمع صوت سيدة.

تدخل مع الشهيق في جسدي، طاقة للأصوات وتموجاته، تسير فيه لتتحول إلى صوتٍ داخلي قادم من أعماقي أحياناً.

الصوت طاقة مادية لا تفنى، موجات تنتشر في الفضاء للأبد، تسبح في ما لا نهاية، يمكن التقاطه والوصول إليه بالتأمل الطويل والسكون.

السكونُ صوتٌ نحتاج له ونفتقده.

فهل يمكن استعادة أصوات قديمة انطلقت في الكون وسكنتْ جبلَ اللويبدة؟

وهل تلتقطها الأرض والسماء؟!

وهل هو كلام يشبه الصمت؟

لعبتْ نسمة خريفية باردة بخصلات شعري المنسلّة من تحت طاقية (توم هات) المثبتة على رأسي بشكل مائل، تملّكتني اللحظة العجائبية لأشعر بالخوف وسيدةٌ تطوقني.

توقفتُ فجأة، واستدرتُ ببطء.

لا أحد!

بكل حب، أنا وأوركيدتي امتطينا قدمَيّ لنقطع الشارع المقابل لمحل جولي، باتجاه ساحة باريس الصغيرة في وسط الدوار. حاولت البدء بحديث لطيف لنألف بعضنا بعضاً، فلم أعد وحيدةً تلك الليلة.

همستُ لها:

عزيزتي، ها نحن نقف في دوار باريس، أشهر معالم جبل اللويبدة التاريخية، عُرف قديماً باسم ميدان الأمعري، بعدها تغير اسمه إلى ميدان محمد علي العجلوني، ثم سُمي دوار الحاووز، حيث كان به خزان دائري للماء، استُعمل لتزويد منطقة وسط البلد بالمياه لفترة طويلة.

كلّ اسمٍ رمزٌ لفترة زمنية معينة أو شخصية مهمة، ولا عجب أن يتغير اسمه بينما أخطَّ كلماتي لكم.

أتخيل دائماً المرأة المرسومة في لوحة الفنان الفرنسي (ايوجين ديلاكورا) منبثقة من دوار باريس المُلهم. وقتها سيصعد القمر الحر إلى سماء زرقاء من هنا، ويغدو اسم الدوّار (الدوار الأزرق). نستطيع أن نمنح الأماكن التي نحب، أسماء خاصة بنا غير مثبتة على اللوحات المعدنية.

لا تتعجبي يا زهرتي الغالية، سأروي لكِ قصةَ اسم ساحة باريس.

بدأت الفكرةُ حين جاء عمدة باريس Bertrand Delano في زيارة إلى الأردن في شهر كانون الأول من عام 2003، وكانت فرصة لإطلاق مشروع ساحة باريس رسمياً، حيث أُنجز هذا المشروع في إطار معاهدة الصداقة والتعاون الموقّعة بين بلديتي عمّان وباريس سنة 1987. وفي شهر حزيران سنة 2005 قام السفير الفرنسي وأمين عمان الكبرى بافتتاح الساحة رسمياً.

تُعَدّ ساحة باريس الأولى والوحيدة من نوعها في المنطقة، خارج العاصمة الفرنسية، حيث أن كل تجهيزاتها، تم شحنها من فرنسا بدءاً من أعمدة الإنارة وعددها ثمانية، والتي تحاكي تلك الموجودة في شارع الشانزيليزيه، مروراً بالمقاعد العامة الخضراء، وانتهاء بنافورة والاس. النافورة على شكل قبة نحاسية، يحملها أربعة أطفال شبه عراة، رُميت عليهم أوشحة مكرمشة. وسُميت بهذا الاسم نسبة إلى الفرنسي

ريتشارد والاس الذي قدّم خمسين نافورة ماء في مدينة باريس بعد حصار 1870.

تعبت قدماي، فجلسنا على أحد المقاعد الخالية التي وُزعت بتناغم حول النقطة الرئيسية لساحة باريس، المنسقة بالنباتات والزهور، وفق المبادئ الكلاسيكية الفرنسية لفن تصميم الحدائق العامة في فرنسا. إحدى الزهور المنتقاة للساحة هي زهرة السوسنة السوداء؛ الزهرة الوطنية للأردن، بالإضافة إلى أنواع مختلفة من النباتات.

هذه المقاعد يستريح عليها الناس: أطفال، وشباب، وعائلات. تمنيت في تلك اللحظة أن يرن هاتفي وتطلب مني عائلتي الجديدة العودة للبيت فوراً، لأن الوقت متأخر.

لا يهم، لقد تعودت.

تجلس الأوركيدا إلى جانبي على الكرسي، وغيري يجلس قرب حبيبه. أبحث عن نصفي الآخر، وبدل أن أجده، وجَدَتْني زهرة!

أوركيدتي، لا أريد أن أثقل عليك. ستكتشفين جمال اللويبدة، وسيروق لك. يكفي أن تكوني حرة، أجول بك بين الأزقة الشوارع والأدراج، تدغدغك النسمات الطرية المتسللة من بين المنازل العريقة. وقتها ستعرفين ما أقصده!

لَيْلُكَ يا جبل اللويبدة

تحركنا من الدوار إلى شارع عائشة الباعونية، حيث أصبحتُ أسكن مع خالتي. مشيت فيه نزولاً مع الاتجاه الوحيد لحركة السيارات غرباً. حقيبتي معي، ولم أنسَ شيئاً.

مساكن جبل اللويبدة كأنها مسكن واحد كبير، قبل أن تتزحزح على استحياء لتنفصل إلى منازل متتالية. لذلك فإن شوارعها ضيقة، تخشى على ساكنيها وحشة الفراق. هذه الشوارع تلتفّ على الجبل كأذرع أمٍّ رؤوم التفّت على وليدها.

تابعت حديثي مع الأوركيدا على امتداد سيرنا:

عزيزتي، تأملي السكون والفراغ الكامن هنا. أثار جبلُ اللويبدة خيالَ الباحثين، وأشعل أفكارهم. قام جيلدا كواينيه، الباحث في المعهد الفرنسي للشرق الأوسط بدراسات عدة حوله، ومما ورد في أحد أبحاثه: «توجّه الناس إلى السكن في التلال في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، ومن هذه التلال، جبلُ اللويبدة الذي يقع غرب وسط مدينة عمان، حيث بُنيت المنازل بين الأشجار في تلك الفترة، وكأنها

غُرست غرساً. أما المحلات التجارية فبدأت بالظهور عام 1960 حول الدوار».

تشبثي بي أوركيدتي، هنا انحناءٌ في خاصـــرة الشـارع إلى اليمـين قلـيلاً يتبعه نزول خفيف، ليعود الشارع للاستواء في خط مستقيم، يمر خلاله شوارع عدة بشكل عرضـي.

الزمانُ والمكانُ وعاءٌ للأحلام.

الزمان يا عزيزتي متداخل في ثنايا الحجر الذي بُنيت منه المباني.

إذا لمستها تصاعدَ منها نشـيد العشق، لأنها حبلى بآهات الشوق، لمن بنى وسكن.

فهي حجارة حُفرت فيها أماكن للبدايات والنهايات.

للفرح، للروح، للفعل.

قلبُ المدينة حجارتُها.

فلنا ثبوتُ الحجر، ولكِ موسـيقى الريح المتكسـرة، وهدير الماء المتفجر.

أيُّ صوت هذا الذي نادى الناس ليبنوا مساكنهم على تلة اللويبدة، عند خط التقاء الأفق بالأرض، من حجرٍ يشبه الكلام؟

نامي أيتها الحجارة بسلام، فالحزن ينمو داخـل الليـل، عـلى الحنـاجر، تحت الأظافر، وبين العين والجفن، لأن الأحبة صاروا للردى.

التقطتُ أنفاسي عندما وصلنا تقاطعَ شارع الباعونية مع شارع مصطفى بيرم التونسي، الذي يمر أيضاً بشكل عرضي على شوارع عدّة. أضع الإناء على الأرض لأريح يدي المتشنجة بعروقها المنتفخة.

فجأة شعرت بأنفاسٍ خلفي، توقفت وبحثت، عاودت المشي، هل يحاول أحدهم أن يمزح معي؟ أم إن خطراً سيداهمني؟ أم إن الهسيس الذي يطن دائماً في أذني اختلط مع لهاثي المرتفع جداً؟

لا..

إنها السيدة، سيدة جبل اللويبدة، العاشقة.

عاشقة الجبل

هل وُلدت من نبات «اللويبدة» البري الذي نما منذ القدم هنا.

أم من حجرٍ رُفع من تلة هناك، ونُقشت عليه حكمة الأيام؟

لا أعرف اسمها، أو إن كانت زهرة، أو حجراً، أو زهرة خرجت من حجر، أو امرأة بلا اسم، لها صوت كالهمس، وأياد حريرية، وعينان تشبهان فينوس – السيدة المرسومة في لوحة الفنان الإيطالي بوتتشلي، والتي ترفل بثوب شفاف، يتقاطع فيها الحلم والحرية، لسيدة عاشقة، ألقت بقرطها فتجسم في ساحة دوار باريس.

شددتُ الخُطى نحو البيت، حتى وصلنا لنقطة التقاء شارع الباعونية بشارع إبراهيم طوقان على اليمين، مشيت للأمام قليلاً حيث أصبح

الانحدار أقوى. أدخل ثالث منزل إلى اليمين، أدخله من البوابة المعدنية، لا أضواء، ولا تحية مسائية من حارس العمارة المرتخي على الكنبة مع قطته مرحباً بي: (أهلاً يا فندم، شرفتِ يا فندم).

تحسستُ الجدار باحثة عن زر الإنارة، لكن خوفي من العتمة وثقل إناء الزهرة جعلاني أرتبك وأضغط على زر جرس الجيران. بصعوبة وجدت الدرجة الأولى، صعدت درجتين وتوقفت لاهثة. زاد الخدر في ساقي، وما عادت يدي قادرة على الحركة. واصلتُ الصعود ببطء لأحافظ على توازني ولا أقع. فتحت الباب بهدوء مفتعل ودخلت.

البيت ساكن.

لا أسكن في الفرح، ولا في الحزن.

ولا أسكن مع الصمت، ولا مع الكلام.

صوت واحد يقول:

مسكني موتٌ مؤجل.

خالتي هيام متقوقعة في أحد أركان البيت كعادتها، ينقبض قلبي، أختبئ في حجرتي، أنيرها بأوركيدتي. أهلاً وسهلاً بالجميع.

ظلٌّ وأشباح

الخيالُ ظلٌّ. والظلُّ حقّ

عقارب ساعة الحائط تقترب من التاسعة والنصف مساءً. وضعت الأوركيدا برفق على مكتبي المجاور للنافذة، بعد أن أزحت الحاسوب المحمول وكتبي وأقلامي وأشعلت مصباح المكتب.

يوم الجمعة الموافق 21/ 9/ 2012، تاريخ ميلاد زهرتي الجميلة في حضرة غرفتي. سجّلته على ورقة صغيرة ألصقتها على الإناء، لكيلا أنسى.

ظلّ نظري معلقاً بها وأنا أبدّل ثيابي، كورقةٍ خضراء نبتت على ساقها. إلى الاسفل قطراتُ الماء تتلألأ في الإناء الشفاف، جذورها مدفونة بين حبات الفحم. وإلى الأعلى ساق خضراء يانعة، تنحني بشيء من دلال وغنج على الإناء، تغمزني بخمس زهرات باللون الليلكي.

رغم التفاؤل الذي تمنيت أن تمنحني إياه الأوركيدا، إلا أنني أمسيت حزينة على ما أصاب «تاتا».

ما هي الرسالة التي جِئتِ بها يا أوركيدتي؟

جلستُ على حافة سريري مجهدة. فبعد يوم مليء بالأحداث، إما أن تنام سريعاً، أو يتوتر جسمك، فتشحد النوم ليأتي بتثاقل ويلقي بحسَنَتِهِ على جفنيك.

شعاع من المصباح المجاور يمسح عليها بلونه الأصفر، فيكوّن لظلها المنعكس على الحائط خلفَها أشكالاً غريبة.

أعجبتني الفكرة.

قمت أغيّر موضعها بالنسبة للضوء وأعود للسرير، أعاين شكل الظل الجديد المتشكل. أخذت أحاول رسم الظلال بقلم الفحم على ورقة كبيرة، في دفتري الفبريانو بهوس.

طبقت مبدأ الرسام الإيطالي جيوتو: إنارة الضوء أولاً. بدّلت الزاوية بين الضوء والأوركيدا. إذا ضاقت الزاوية ازداد طول الظل على الحائط. وكلما اقتربت الأوركيدا من الضوء كبرت رقعة الظل.

المبدأ الثاني هو المسافة بين الأوركيدا وعيني. جلست على السرير، ثم ابتعدت عند باب الغرفة، بعدها اقتربت من المكتب، وأخيراً تربعت على الأرض أسفل منها.

اندمجتُ أكثر في الأشكال، أسترجع معها حادثاً قديماً، وجوه، عيون، تصفيق، زغاريد، زفة عروس ذهبنا لنحضر حفل زواجها ما لبثت أن

انفجرت كوشتها إلى أشلاء. ما هذه الخربشات الظلّية. ماضٍ ترك أثره عليّ، ومستقبل لم أحصل عليه. أشعر بطعم الظل المر، ورائحته المسائية الكئيبة، ولونه الذي بدا أحمر، أزرق، أو بنفسجياً.

بأطراف أصابعي دمجتُ الظل، أوزعه، أخففه في مناطق، وأزيد من حدته في مناطق أخرى. تكوّمت الرسوماتُ والدموع تحت أنفاسٍ أرهقها الانفعال.

هربتٌ سنوات علاجي من النور، أخشى من ظلي المتشكل من نور الشمس أو القمر، لأفر لظل صديقتي رهف وأخيها تميم. واكتفيت بظل خفيف وباهت شكّله لي كوكب الزهرة، حتى تماثلت للشفاء.

كشريط سينمائي يمر بتتابع مريب على الحائط، ظهر تنين بخمس رؤوس ينفث نيرانه. تتداخل معه أشلاء ميتة قادمة من أرض الظلال، حيث الموتى يرسلون إشاراتهم منها.

رعشة يدي هجمت عليَّ تنهش رأسي ولا أستطيع المقاومة.

دمعتان سقطتا وانشطرتا إلى مئات الأجزاء.

نشيج يتصاعد، كقنبلة تنفجر من جوفي المحموم من القهر.

ألقيت قلمي والدفتر على الأرض على مد يدي، خفت أن تكون لهذه الزهرة لعنة تصيب من يشاكسها، خاصة وأنها ليلتها الأولى في منزلي.

استعذت من الشيطان، وباسم الرحمن وضعتُ جسدي مكوّراً داخل رحم غطاء السرير، كجنين في بطن أمه. هدأت بعض الشيء، بعد أن رددت أدعية وابتهالات حفظتُها عن «تاتا».

تذكرت أنني لم أطفئ ضوء المصباح، ألقيت نظرة على ضيفتي، تمنيت لها ليلة سعيدة، وأصابعي تدير المفتاح.

وأنتم أيضاً تصبحون على خير، أحلام سعيدة.

حلم جديد

أوركيدات بيضاء كبيرة جداً، ثوب أبيض طويل أطوف به بينها، أتعثر به، أمسك أطرافه كيلا أسقط، غيوم تتحرك وتتجمع، يرقد عليها أحدٌ ما،

أقترب أكثر فأكثر.

«تاتا» مسجاة في غيمة قطنية، طافية على سائل حليبي، إكليل أوركيدات بيضاء يطوق جبينها، حبات بلورية كالسكّر تتلألأ على جسدها اللامع، المغطى بشراشف حريرية. تبدو نائمة، وملامحها ساكنة، أنادي عليها، لكنها لا تجيب، أحاول أن ألمسها، لكن يدي لا تصل إليها. «الغيمة بدأت تسبح مبتعدة عني، تحملها معها، قدماي مكبلتان بالأرض بطوق حديدي صليلُه يصمّ أذني. أصرخ: «تاتا».

اسيقظت هلعة، أهذي باسمها، الساعة تشير إلى الخامسة فجراً، ترددت في الاتصال بها، فالوقت غير مناسب.

جلست فوق السرير مقبوضة الصدر، أمسك برأسي الذي يطوف فيه الحلم، ما معنى هذه الأوركيدات والغيوم، هل هذه أول اللعنات؟

هل أثّرَ طقس الخريف على طاقتي ومزاجي، فتشابكت أحلامي؟! كان ذلك في أول أيام الاعتدال الخريفي. ستشرق الشمس عند الدرجة 90 تماماً، أيٍّ في نقطة الشرق الحقيقية.

حاولت أن أشغل نفسي وأتناسى الكابوس. الدقائق بطيئة، لا محاضرات في الجامعة. تناولت جهاز الحاسوب المحمول، فتحت الرسائل الواردة إلى بريدي الإلكتروني. دعايات، إعلانات مملة، ورسائل كثيرة ضج بها صندوقي.

فتحت صندوق المحادثة في الفيسبوك. الثرثرة مفيدة أحياناً لصهر وقت الانتظار، خاصة وإنني أتمرن على اللغة الصينية بالمحادثة والكتابة مع بعض الأصدقاء، بحكم دراستي اللغات في الجامعة.

أرسلتْ صديقتي الصينية «لي» تحية:

- مرحبا شيرين؟
- أهلاً «لي»، كيف حالك؟
- أنا بخير، أين أنت مختبئة الفترة الماضية يا فتاة؟
- لست مختبئة، فقد بدأ العام الجامعي الجديد، ولا جديد لدي.
- لا جديد، ماذا بالنسبة لموضوع الحلقة الدراسية مع جامعة بكين؟ هل قدمت أوراقك لقسمك؟ الوقت قاربَ على الانتهاء.

كلماتها المكتوبة يدان تخرجان من الشاشة وتعتصران عنقي، تعرقلتُ بحروفي وأصابعي تكتب الإجابة بحيرة:

- في الحقيقة، لا.

- لا، لماذا؟

- كسل، ليس أكثر.

- شيرين، ما بك؟ لستِ على ما يرام.

نظرت للأوركيدا نظرة عتب، وكتبت ساخطة:

- بصراحة، ما بين كآبة خالتي ومرض جدتي عندما أخبرتها بحلم و...

- حلم؟ ما هو؟

- حلمت أنني في وادٍ من الأوركيدات من كل لون وشكل. تصوّري! لقد اشتريت واحدة أمس، اعتقدت أنني سأرتاح، لكن جدتي مرضت بمجرد أن أخبرتها عن حلمي.

- واو! شيرين، جميل.

جميل! هذه الفتاة الصينية ستسبب لي الجنون أو الصرع. كتبتُ بتعجب مملوء بالاستفهام:

- ماذا؟ ما الجميل في الأمر «لي».. هاه؟!

- هل تعلمين أن الحلم بالأوركيدا يعني بحسب معتقداتنا الصينية، الحاجة للحفاظ على الرومانسية والحب.

أحدّق بالشاشة غير مصدِّقة بما تهذيه:

- ماذا؟

كتَبت «لي» بحماسة:

- يعد أول تاريخ مكتوب للأوركيدا على أيدي أجدادي الصينيين، ويعود لسنة 700 قبل الميلاد، وقد أطلق عليها الفيلسوف الصيني كونفشيوس لقب زهرة عطر الملوك.

ضربت كُفاً بكف وأنا أضحك غير مصدّقة.

- جميل «لي»، يبدو أنني سأبدّل رأيي بخصوص الحلقة الدراسية، وأقدم الأوراق غداً.

- رائع، سأكون متشوقة لرؤيتك، وأنتِ؟!

همستُ في قلبي، أنظر لأوركيدتي، أحدث نفسي؛ سأكون متشوِّقة لحبٍّ أبحث عنه، وينتظرني في أقصى الشرق!

- ولا تنسي أن معنى اسمي «لي»، زهرة!

سألتها قبل أن تغادر:

-لاحظتُ منذ شهر تقريباً أنك تضعين خلفية غريبة لصفحتك على الفيسبوك. جسر من طيور بين رجل وامرأة. ما معنى هذا؟

- إنه عيد الحب الصيني، عيد «تسي سي»، نحتفل به كل عام في اليوم السابع من الشهر السابع وفقاً للتقويم القمري الصيني،

والذي يوافق شهر تموز. هو لا يقل أهمية عن الأعياد التقليدية في الصين. أما طائر العقعق، والقصة الرومانسية بين الرجل والمرأة، فسأحدثك عنها بعد أن تقومي بإجراءات تقديم الطلب.

- «لي»، انتظري أرجوكِ!

- سأذهب لتناول طعام الغداء، فالساعة قاربت الواحدة ظهراً. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

نظرت للساعة. كانت عقاربها تقترب من الثامنة صباحاً. اتصلت بالهاتف الأرضي الموجود في غرفة «تاتا»، لا جواب، ازداد قلقي، أعدتُ المحاولة، ردّت زوجة ابنها، كلامها الحاد كسكّين قطع خيط أعصابي الهزيل.

أخبرتني أن الزيارة مُنعت عنها، ولا تستطيع التحدث بالهاتف، فقد زارها الطبيب في الصباح وطلب ألّا تجهد نفسها. أغلقتُ السماعة، اعتصرتُ غطاء السرير وشَدَدْتُه بأسناني.

تذبذبت موجة صغيرة من الهسيس متسارعةً في رأسي، دقّت جسمي بالمسامير، أغلقت أذني بيدي لأحاول السيطرة عليها، ارتميت على وسادتي طامرةً رأسي بالغطاء، أجهشتُ بالبكاء هاربةً من أحزاني بالعودة للنوم مرة أخرى.

ذكريات

أكره المكنسة الكهربائية. شخيرها في أول النهار يشدّ أوتار رأسي المنكوشة، خاصة بعد ليلة مربكة بحلمٍ مريب عن «تاتا».

الخادمة تنظف البيت كله، ما عدا خزانة التحف البلورية. تعتني خالتي بمجموعتها الفنية من الكريستال والقطع الثمينة من العاج والمرمر، أكثر من اعتنائها بي. تتوسط القطعَ تحفةٌ لأبراج الكويت، أحضرتْها عندما استقرت مع زوجها في عمان، بعد حرب الخليج الثانية. وكانا قد أمضيا أكثر من ربع قرن هناك.

أنا وحدي التحفة المنسية في خزانة الدهر الشائخ في هذا المنزل، لا أغري أحداً بالنظر إليّ.

تمضي ساعات عملهما مملّة، وبعد أن تنتهيا، تحتسي خالتي هيام مع الخادمة نيروشا، فنجان قهوة وتتحدثان. بالأحرىٰ تحدّثها خالتي في كل مرة عن الموضوع نفسه، ونيروشا تهز رأسها بسذاجة!

نهضتُ من فراشي، حشرت قدمي داخل حذائي الخاص بضجر، فأنا لا أقدر علىٰ المشي من دونه، رغم أنني أشعر برأسي يختنق فيه!

عندما رفعت رأسي للأعلى واجهتني الأوركيدا في ضوء الصباح الشفاف، وذرّات الغبار من حولها تتراقص. كم بدت جميلة وبريئة، بعكس ما تخيلتُ أصابعي في الليلة الماضية. بتلات الزهرة فريدة الترتيب الهندسي، تشفّ عن عروق نابضة بالحياة.

خرجت من غرفتي متعثرة بين الأرائك والطاولات المُزاحة، لم يشعر بي أحد، كأنني شبح، ابتعدتُ عن الماء المسكوب على الأرضية، ورائحة المنظفات تُزاحم هواء الشقة. بقفزات مهزوزة تخطيتُ السجاجيد الملفوفة، وعندما اقتربتُ من كراسي طاولة الطعام، خفضتُ رأسي لأنقذه من المنفضة المحلّقة بيد نيروشا وهي تمررها على اللوحات الأرستقراطية المثبتة على الجدران، لأصل أخيراً إلى المطبخ في سبيل تحضير فنجان من القهوة بالحليب.

أُحرك القهوة بالملعقة، وأفكاري تدور وتدور في تفسير صديقتي «لي» لحلمي، ولكن قلقي على «تاتا» بَدّد أي شعور جميل. إحساسي يمتزج فيه الفرح والحزن. عدت من شرودي على وَقْعِ حديث خالتي عن ذكريات زوجها المتوفى والمسكينة نيروشا تبدو بعينين باردتين. لا تشعر بحرارة الكلمات. أصبح لديّ فضول لمعرفة ماهية العاطفة التي أردتْ خالتي كئيبةً على فراق رفيق عمرها.

انتظرتني مفاجأةٌ في الممر. كرسيي المتحرك يتكئ على الحائط الشاحب. شملَتْهُ حملةُ التنظيفات من غرفة المخزن، وآن الأوان للتخلص منه!
كلما نظرتُ إلى حذائي ذي الدعامة الحديديّة وإلى الكرسي المتحرك، تجددت الأحزان وتكاثرت في روحي، كفطريات ضارة تنمو بتسارع وهوس كبيرين، ليتأجج حقد قديم على خطيبي الذي تخلّى عني بعد أن رآني متصلبة على الكرسي كدمية خشبية باردة، فهل أستطيع التخلص من ذكراه وأسامحه على خذلانه لي؟

رميت جسدي منهكة القوى على السرير، فتّشت في حقيبتي عن الدواء المسكِّن، فوجدت داخلها تفاحة منسية، سال سُلافها السكري على أطراف فمي بعد قضمة كبيرة تلتها قضمتان صغيرتان.
قرّرت أن أذهب في اليوم التالي لتقديم أوراقي لرئيس القسم، فتحت دولاب الملابس؛ ماذا سآخذ معي؟ عليّ التأكد من درجات الحرارة في مدينة بكين في منتصف شهر تشرين الثاني.
لمحت في الرّف العلوي كيساً كبيراً مجهول الهوية، تحسسته بيدي أستبصر محتواه، شددت جذعي أكثر والكرسي يتأرجح متخلخلاً تحت قدميّ، قذفت به على الأرض بضربة واحدة. ونزلت أفتحه لأجد

زلاجاتي، وكرة سلة، وكرة يد وغيرها من الأدوات الرياضية التي استخدمتها خلال دراستي الجامعية في تخصص التربية الرياضية قبل الحادث.

كتبت ما أحتاجه على ورقة للتسوق من وسط البلد، أما هذا الكيس فلم أعد بحاجة لمحتوياته أبداً، فقد دفعتني الأقدار بعد سنوات لأغير مجال دراستي، لهذا ناولته للخادمة نيروشا.

حسمت أمري، قررت، وعزمت على السفر. عقلي الواعي صرخ بي: «تريثي شيرين، ما كل هذه التفاهة، حب وسفر وزهور... ». «اخرس أيها العقل، لن أضيع فرصتي، ضاقت بي الدنيا». يتداخل هسيس أذني مع همهمات عاشقة الجبل تحثني للمضي قدماً.

تجر الخادمة المسكينة كيسَ خيباتي وهي تغادر بعد أن تخدرتُ بالجرعة الأسبوعية من ذكريات خالتي الوحيدة المنتحبة!

الشبكة العنكبوتية

استطلعتُ عن الأوراق المطلوبة من موقع الجامعة الإلكتروني، بحثت في الشبكة العنكبوتية عن زهرة الأوركيدا. بكبسات متتالية على النتائج الظاهرة، وجدت معلومات شيقة، كتبت لكم بعضها:

«هي لا تعرف معنى التقليدية، بل تتمتع بالجمال والغرابة في الوقت نفسه، وهو ما يكسبها جاذبيتها الخاصة. كما إن التنوع الهائل هو السمة التي لا تتخلى عنها، حيث يوجد 25 ألف نوع، مما يجعلها أكبر عائلة نباتات مزهرة».

«قلب الزهرة يتغير شكله من نوع لآخر. أما أصغر زهور الأوركيدا فتوجد في أمريكا الجنوبية، ولا يزيد قطرها عن نصف ملليمتر، وأكبرها في جزيرة مدغشقر، حيث يبلغ قطرها أكثر من 18 بوصة. كما يوجد أضخم نبات للأوركيدا في غابات ماليزيا والفلبين».

وقفتُ أحرك جسمي المتيبس بعد جلسة طويلة، وغيرتُ الورقة الملصقة على الإناء.

فكرت كثيراً، ماذا أكتب؟

زهرة عطر الملوك، لا.

كتبت: حبّ في أقصى الشرق

يوم الجمعة الموافق21-9-2012

لا تكفّ نفسي عن انتقادي قائلة: ما كل هذه التفاهة؟ هل تصدّقين الخرافات وأنت طالبة جامعية؟ يُفترض أنك فتاة واعية، تزن الأمور بعقلانية. آه يا نفسي! سئمت التعقل. أريد أن أكون مجنونة، ولو لمرة واحدة في حياتي.

بعد أن تناولت قرص الدواء المسكّن، عدت أقلّب المواقع الإلكترونية والصور بكبسات سريعة على المفاتيح المهووسة بالفتنة. كلما كبستُ على مفتاح، تفجرتْ مساحيق الجمال في تلك الأزهار الخيالية لتملأ حواسي.

تابعت البحث من موقع آخر:

«تنمو الأوركيدا على ضفاف الأنهار أو فوق الجبال على ارتفاع 14 ألف قدم، وبعضها يعيش وسط الغابات المطرة الاستوائية، وتلك الأنواع تختلف في أشكالها وأحجامها، فمنها ذات الزهرة الواحدة، ومنها متعددة الزهرات على فرع واحد».

صور متنوعة لألوانها ما بين البرّاقة والهادئة. فمنها الأبيض الناصع، والأحمر، والأصفر، والأخضر، والبرتقالي، وما هو من درجات البنّي، ومنها البنفسجي الداكن. وهي ذات نقوش منقّطة، مخطّطة، مبرقشة، أو ذات لون واحد من دون نقش. ختمت جولتي بتخزين بعض الصور للأوركيدا في ملف خاص على الحاسوب لأرسمها لاحقاً.

درَجُ الكَلْحة يُشْبهنا

انقطع قوس قزح المتشكل من ألوان الأوركيدا اللامتناهية بسبب رنين هاتفي. راشد على الخط يستدرجني للحديث. عرضت عليه أن يرافقني إلى وسط البلد. الموعد بعد ساعة. نتسوق ونتناول الغداء.

أعجبته الفكرة، فهو يحب زيارة (down twon) كلما عاد من أسفاره، يتسكّع بين المحلات التجارية القديمة، بائعي عصير قصب السكر، محلات الأنتيكا، سوق البخارية، سوق منكو، شارع بسمان، إلى أن يصل إلى سوق السكّر القريب من سقف السيل، المعروف بمتاجره المتخصصة بالبهارات، والتوابل ومحلات العطارة وبسطات الثمار الموسمية.

راشد يحلّق بالحنين كسواه من المغتربين عندما يعودون لقضاء الإجازة.

اتفقنا على اللقاء عند درج الكلحة. نزلت من السرفيس في شارع نمر بن عدوان، انعطفتُ إلى اليمين بخطوات حذرة، خشية الانزلاق بسبب الانحدار الشديد في الشارع، لأجد راشد يقف بانتظاري عند مدخل الدرج في نهاية الشارع إلى اليسار.

يبادرني:

- أهلاً شيري، كيف المزاج اليوم؟

- راشد، لا تشاكسني، أنا بخير. والدتك لم تأذن لي بالحديث مع «تاتا»، ولا حتى بزيارتها، لكنني سآتي غداً من دون موعد.

ضحك وهو يتساءل:

- لماذا أنت محتدّة؟

- لست محتدّة. قلقت عليها. بمجرد أن أخبرتها إنني اشتريت زهرة الأوركيدا غابت عن وعيها.

- لا تقلقي، إنها بخير.

- هل سنبقى واقفين؟ هيا بنا.

كدت أخبره عن كابوس الليلة الماضية، لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة، فأنا أعرفه من أيام الطفولة، لا يستطيع كتمان سر أبداً، لكن خفّة ظله، وعفويته، وطيب أخلاقه، أمور تشفع له وتوثّق عُرى المحبة والصداقة بيننا.

نزلنا درجات الكلحة التسعين. مدخل الدرج في البداية عريض والدرجات متباعدة. عندما صرنا بالقرب من محل قطايف أبو علي الشهير على يمين الدرج، ضاقت الدرجات شيئاً فشيئاً. الفتى الصغير في المحل يعبئ الأقراص الدائرية بخفة في صحون مستطيلة كرتونية على

مدار السنة. بصراحة لا أتخيل نفسي آكل القطايف إلا في شهر رمضان.

أهبط الدرجات وأنقّل خطواتي بحذر، يد أتكئ بها على راشد، وبأصابع يدي الأخرى أستعين بالحائط المجاور. رجوته ألّا يسرع، وأن يترفق بحالي، فجثته الضخمة وخطواته الذكورية الواسعة، تبتلع كل درجتين بخطوة.

بالقرب من فندق الريفيرا، نُصب «درابزين» يتوسط الدرجات النحيلة شديدة الانحدار، قاسماً إياه إلى قسمين. نزل كلٌّ منّا من جهة. وصلنا أخيراً بعد لهاث طويل. أخبرته بعد لحظات من تأملي للدرج وعودة أنفاسي المبعثرة:

- دَرَجُ الكلحة يشبهنا!

التفت وقال بتعجب ممزوج بسخرية عالية:

- لم أفهم يا فيلسوفة زمانك.

- ألن تكفّ عن خفة دمك؟

وأضفتُ:

- في طفولتنا كنا نلعب وندرس ونأكل معاً. وبعد أن سافرتَ للدراسة والعمل، افترقنا، وأصبح كل منا في جهة و.

بانفعال قاطعني بحركة من يده أمام وجهي:

- شـيرين. تذكّري من الذي بدأ بالفراق، أنتِ مـن خُطِـبَ لشـاب آخر بعد سفري للدراسة، تحت إغراء أهلك بمركزه واسم عائلتـه الكبير، لكنه النصـيب! وعند أول محك، ظهر على أصله الـــ..

أضـرب بقدمي الأرض صارخة:

- راشد، كفى!

وضع يديه في جيبي بنطاله، وأدار ظهره متمتماً:

- أنت التي بدأتِ بالحديث و...

توترت، فهاجمني شدٌّ عضليٌّ في ساقي، غيّرت الموضوع:

- أنا جائعة.

- ما رأيك بمطعم القدس، نأكل المنسف أو المقلوبة بالباذنجان؟

- لا، أريد سمكاً.

- حاضـر، لا أستطيع أن أرفض لك طلباً، آنسة شـيري!

لقد تعبْت..

أمسك راشد يدي وانعطفنا إلى اليمين. الرصيف مزدحم. نغوص بين الناس، كتفي تنكمش من اليمين إلى اليسار وبالعكس، نبتعد عن صواني الشاي والعصير المتأرجحة فوق رؤوسنا، نجذّف بحذر لنتفادى الاصطدامات، راشد يحاول قدر المستطاع أن ننفذ من بين الجموع واضعاً يده على كتفي ليوجّه خطواتي بين أمواج العابرين.

تخطينا الشارع من أمام مطعم هاشم إلى الرصيف المقابل. من بين العطور والبخور، وبياض الجوارب الممدّدة على البسطات، ولمعان الفواكه في سوق «الوحامى» في الدخلة الصغيرة، نُعرِّج إلى اليمين ونصعد السلالم، نحو مطعم سارة للأسماك، نختار طاولة في الشرفة المطلة على الشارع الحيوي.

الشمس تنفجر بأشعة عمودية على زجاج السيارات في حركتها المستمرة في الاتجاهين لتنعكس على المباني القديمة وسط البلد. جوقة الأصوات يتداخل فيها نفير أبواق الحافلات مع الألحان التي تضج بها محلات التسجيلات. صوت الباعة في المحلات يتكاثف مع نداء رجل يدّلل على ثمرة الصبّار الشوكية، التي نامت على عربة خشبية، وسط أكوام من الثلج، لتبقى باردة ومنعشة، يقشرها بخفة بيدين عاريتين.

ظل راشد يراقب حركة الشارع، مطلقاً تعليقاته الساخرة على المارة بلسانه السليط، مترصداً الناس في العمارات المقابلة، ناشراً ضحكته المجلجلة وهو يقارن ما يراه هنا بما رآه في غربته.

هذا المزيج من الحياة العمّانية لا تجده إلا في وسط البلد. البساطة وعدم التكلف تبعث على الراحة، وتتيح لك أن تكون على سجيتك.

الساعة قاربت الثانية ظهراً. فبعد خمسين دقيقة تقريباً، ستنطبق الشمس تماماً على خط الاستواء، قادمة من النصف الشمالي للأرض، نحو النصف الجنوبي، ليتساوى طولاً الليل والنهار. الأرصاد الجوية حددت ساعة الاعتدال بالدقيقة. وأنا أرصدُ نكهة الأشعة الشمسية وروح الأرض.

بعد دقائق، أحضر النادل قائمة الطعام، وبدأ راشد بالتطبيل على كرشه المنتفخة كبطيخة صيفية. قراءة القائمة، كانت كافية لتحريك لعابي. تفاحة، وفنجان قهوة شربته على الريق، كانا قد تسبّبا بمغص في معدتي.

سمك، رُبيان مشوي، شوربة ذرة، تبولة، حمص، بطاطا مقلية، متبَّل باذنجان، سلطة يونانية، ومشروبات غازية باردة طبعاً. اندهش راشد وأنا أخبر النادل بالطلب. ظلّ صامتاً فاغراً فاه. فهذا الأكل يكفي قبيلة!

سألني بعد ذهاب النادل:

– يبدو أنك لا تأكلين في البيت؟

– أكيد، ليس للطعام مذاق أبداً. لا شهية مع الوحدة.

– أين خالتك؟

– خالتي في حالة كآبة مزمنة فهي تأكل وحدها. آه يا راشد!

دققتُ الطاولة بقبضة يدي وقلت بانفعال:

– هي ليست الوحيدة التي يتوفى زوجها، أعرف أنهما أحبا بعضهما بعضاً كثيراً. لكنها غابت عن الحياة، كثيراً ما حاولت أن أُخرجها مما هي فيه. رجوتها أكثر من مرة أن تشارك في بازار الباعونية، الذي تنظمه جمعية أصدقاء اللويبدة على دوار باريس ببعض مشغولاتها اليدوية، وهناك ستتعرف على السيدات، وترى العالم الذي انعزلت عنه بمحض إرادتها.

– شيري.

– دعني أُكمل كلامي. خالتي تكره نفسها ولا تحبني. أريد أن تعتني بي بعد الحادث الأليم. سئمتُ يا راشد، سأسافر ولن أعود، علّني أريحكم مني نهائياً.

– هَوّني عليكِ، أخبريني كيف أساعدك يا شيرين؟

– لا أعرف، لا أعرف!

القدرُ حقيبةٌ إجبارية

بلعت لساني. عيناي تفترسان زحمة الشارع، وفي جوفي المحتقن طنجرة مضغوطة تغلي نافثةً بخار القهر. الأغاني تنبعث حزينة من ثقوب السماعات في محلات الأسطوانات والمطربة أليسا تصدح بلحن مشروخ: «حُبّك وجَعٌ، بعدُوٌ معي، حُبّك حلمٌ هربان».

نظرت إلى راشد بطرف عيني، راشد يفكر بشيء يقلقه، بدا عليه التّجهّم، لم أعتد أن أراه بهذه الملامح الجادة، صورته في ذهني عكس اسمه، راشد الضحوك صاحب النكتة، وأحياناً ثقيل الظل. اندمجت موجات ذهبية من خصلات شعره بأشعة الشمس، ورشقت الأشعة خدّيه بأقلامها البنية بنمشٍ ناعم.

سألته بهدوء:

– راشد، ما خطبك؟

رد بهدوء مفتعل من دون أن ينظر إلي:

– لا شيء.

رائحة السمك المشوي تغزل مع المقبلات جديلة من النكهات المُغْرية، تُغازلنا لنصيدها بلا تفكير. الحوار شرذمنا بسرعة حوت. نسيتُ همي وألمي، وتبعثر كلامنا بين اللُّقَم، وتلذّذت الأنفاس بسمكٍ بحري

كان حراً طليقاً، وأمسى أسيراً ممدّداً، تحت فِراشٍ من بصل وبقدونس.

التصقنا بالطاولة. يتغير المزاج كلياً مع مائدة هكذه. قضينا على الوليمة بالكامل، مسح راشد طبق المتبل بآخر قطعة خبز، وكنت أستخلص بلساني حموضةَ آخر قطعة ليمون.

توهج وجه راشد بالسعادة، وعاد ليلقي بالنكات السمجة، ومن شدة الضحك كنت أضرب الأرض بكلتا قدمي غير مسيطرة على انفعالي.

خرجنا من المطعم، نجرُّ جسدَين متخمين بالملذات والبسمات. سألني راشد وهو ينظف أسنانه بالنكّاشة الخشبية:

– صحيح، ماذا تريدين أن تشتري من السوق؟!

– حقيبة كبيرة.

– حقيبة؟ لماذا؟!

– أخبرتك أنني سأسافر، سأسافر إلى الصين.

وقف ليقذف نظرته التي أمقتها، من رأسي حتى قدمي المحشورة في حذائها ذي الدعامة الحديدية.

تابعتُ:

– أنت تعلم أنني في السنة الجامعية الثالثة، أدّرس اللغات، وتخصصت باللغتين الصينية والإنجليزية، وفي هذه المرحلة،

نستطيع بالتبادل الثقافي بين جامعتنا وجامعة بكين، أن نسافر للصين، لحضور حلقة تدريبية مكثفة باللغة.

حاولت إقناعه بعكس ما أفكر به، فكلمات صديقتي الصينية «لي» عن الأوركيدا والحب تبدو قصة رومانسية استساغتها روحي، لكنني آثرت كتمان ذلك، خشية أن أصبح نكتة الموسم عند راشد.

قاطعني بسؤال:

- هل حصلتِ على القبول من الجامعة؟

- لا، غداً سأُقدم الأوراق للقسم، بقي أسبوع وتنتهي فترة تقديم الطلبات. السفر سيكون في شهر تشرين الثاني.

- لماذا تريدين أن تشتري حقيبة؟ انتظري القبول أولاً.

أجبته بعد أن توقفت محدّقةً في عينيه بشغف:

- أولاً، أنا متفائلة. ثانياً، علّمني تميم قانون الجذب. فعندما نريد شئاً، نفكر فيه بإيمان مطلق بقدرة الله، ونهيئ أنفسنا بأننا حصلنا عليه فعلاً بتدريب الخيال بالكلمات الإيجابية، وكتابة الأمنيات، والتأمل المستمر بالنجاح وتحقيق الهدف المنشود.

قال وهو يطحن النكّاشة بين نابه والضرس:

- نعم، نعم. تميم.. قانون الجذب.. جيد.. منكِ نستفيد!

وواصل حديثه:

- هل تعلمين أن الشعوب القديمة في مصر واليونان، هم أول من قاموا بالجذب الفكري؟ ولمعلوماتك، هو ليس قانوناً، بل نظرية.
- لماذا؟
- لا يوجد لنظرية الجذب أساس علمي.
- لماذا؟ طبّقْتُه في فترة علاجي واستفدت كثيراً.
- أكيد. هو يعمل بمبدأ التفاؤل والعمل. وهذا أساس عقيدتنا القائمة على حسن الظن بالله.
- شكراً راشد.
- عفواً.

التفتَ بوجهه بعيداً شارداً، في واجهات المتاجر. فكرتُ في موضوع آخر أتحدث فيه، لكن ذهني لم يسعفني.

أخيراً اشتريت حقيبة تفي بالغرض. أقول أخيراً، لأنني درتُ بين جميع المحلات لأعاين الحقائب. كنت أبحث عن حقيبة أملأ فيها أحلامي وطموحاتي، وحباً كبيراً بحجم الصين. حقيبة تتسع لأقدار جديدة أتمناها سعيدة، ونور جديد يضيء مستقبلي. حملها راشد عن طيب خاطر، يخفف عني المشقة والألم.

في السوق مررنا بالقرب من محل الكنافة. غمزني لنأكل. لم أستطع قبول دعوته. فقد كتم طعام الغداء أنفاسي، لكننا اتفقنا أن نعود في يوم آخر.

«وبخاف من الغروب»

تيبست قدماي من المشي فأوقف راشد سيارة أجرة لنعود. دخل معي إلى البيت، ليُسلّم على خالتي. توقعتُ أن تسألني عن الحقيبة، لكن كالعادة؛ لا أحد يهتم.

وضع الحقيبة في غرفتي. أراقب نظراته تجول في أرجائها، تسخران من فوضى الكتب الملقاة تحت السرير، دولاب الملابس بأبوابه المفتوحة، الأوراق المبعثرة في أنحاء الغرفة، حتى توقفت نظراته عند الأوركيدا.

سألني:

– متى اشتريتِ هذه الزهرة؟ ومن أين؟

ببراءة أجبت:

– أمس من أزهار جولي.

– لأجل هذا لم تقبلي دعوتي لك على العشاء ليلة البارحة.

أزاح جانباً دفتر الرسم وأقلام الفحم عن الأريكة، وجلس يهز رأسه مستطرداً:

– هل تعلمين أن هناك مهرجاناً سنوياً لزهرة الأوركيدا، تُعرض فيه أكثر من 6500 زهرة، تقيمه حدائق كيو الملكية للنباتات في لندن،

لأن بريطانيا أهم بلد في إنتاج الأوركيدا في العالم، تليها هولندا ثم بلجيكا.

- لم أتوقع ذلك.

- لا تتعجبي. فمنذ القدم وملوك بريطانيا ينافسون ملوك إسبانيا، للحصول على الأوركيدا الأبهى والأغلى والأندر، من كل بقاع الأرض. ففي الحديقة أقدم مجموعة استوائية للأوركيدا، يعود تاريخها إلى عام 1770م.

- جميل.

- أنتِ الجميلة، يا أوركيدا.

استوقفته بعد أن قام من مجلسه وسألته:

- راشد، أمس طلبت أن تحدثني بأمر ما؟

- لا تقلقي. لا يوجد شيء مهم، تصبحين على خير.

تنهد ثم تابع:

- ألستِ عازمة على السفر؟

- أتمنى ذلك، وما رأيك بالموضوع؟

- هل يهمك رأيي؟! وما الفائدة! أنت قررتِ، وأراكِ متحمسة للفكرة، لا بأس، سافري!

لكزته في خاصرته عندما استدار للخروج.

حتى الشمس حزمت حقائبها إلى نقطة الغروب الحقيقية، في يوم الاعتدال الخريفي. نظرت في المرآة، فبدوت شاحبة الوجه غائرة العينين، ورميت نفسي على السرير.

الأوركيدا على المكتب تصوّب زهراتها نحوي. ببتلاتها منتظمة الشكل مخملية الملمس. صَوَّرتُها بهاتفي النقال، ولأن الضوء قادم من الخلفية، بدت الصورة معتمةً كظل.

كلما زادت زاوية غروب الشمس، زاد لهيب أشعتها، لتحرق الأوركيدا وتلقي بشظاياها داخل قلبي. أصابني التعب بهلوسات بصرية. أسدلتُ جفنيّ، لأنسى المشهد الحزين العالق على طرف هُدبي.

نسمات أيلول الخريفية تتنفس في الكون. شهيقها أمام نافذتي يسحب ستائري للخارج، يتبعه زفير أعمق يدفع بها داخل غرفتي، تعلو بزاوية منفرجة من أحد الأطراف، تتموج برّقة كموجِ نهرٍ هائم، لتعود بتدرج وهدوء.

يد النسيم دفعت الستارة، وباليد الأخرى رمت داخل الغرفة، ضوضاء تلفاز جارنا أبو إسماعيل، المتمركز في حديقة منزله أسفل العمارة. هو يُصر على مشاهدة برامج قناة الحيوانات والأدغال في الصباح، أما زوجته بحِجّاتها السبع، فتتمسمر في المساء مع صحن المكسرات، أمام المسلسلات التركية والمكسيكية المدبلجة التي تضخ قصص الحب الملون والعشق الممنوع.

قرأت مؤخراً دراسة علمية للدكتوره منى غريب، أثبتت أن مشاهدة المسلسلات الرومانسية، تعدّل من نسبة السكر بالدم وتريح المزاج، هل هذا معقول؟

«تتر» مقدمة المسلسل الذي يصنع سهرة أم اسماعيل، يصدح عالياً من التلفاز، كلمات الأغنية بتوقيع الشاعر عبد الرحمن الأبنودي، بقيت أُدندن معها حتى ذبت نعساً كقطعة سكّر في شاي المساء، مرددة معه:

«وبخاف من الغروب، وكل ما يقرّبْ بفكّرْ في الهروب
منين يجي الإحساس، من نفسي ولّا الناس
وإلّي النهار يكتبوا آخر النهار مشطوب
وإلّي البشر بتحسبوا تلاقيه مش محسوب
وإحنا زي الشمس.. وإحنا زي الشمس
مصيرنا للغروب».

مرآة الذكرى

زئيرُ أُسود برنامج الطبيعة اقتحم منزلنا وأيقظني. غلبني النعاس الليلة الماضية، وأخيراً وجدت حسنة واحدة لوجود التلفاز في ساحة الحديقة!

كان لدي متسع من الوقت لأجهز نفسي قبل دوام الجامعة. اقتربت من الأوركيدا هامسة: صباح الخير.

دمعة ندىٰ علىٰ إحدىٰ البتلات المخملية اهتزت بخفة، ذكّرتني بدمعة «تاتا» المنحدرة من عين الذكرىٰ القديمة.

عدلت هندامي وعاينتُ قامتي المشوّهة بسبب شظايا حادث. المرآة هي القطعة الوحيدة التي أحضرتها من منزل أهلي عندما انتقلت للسكن مع خالتي قبل سبع سنوات. في زاوية وحيدة وضعتُ آخر صورة لهم. الصورةُ الضوئية توثيقٌ للظل.

والدي ووالدتي وأختاي الصغيرتان. يومها التقطتُ صورة تعكس موجات الضوء، وما هي إلا تدّرجات لظلالهم، وبقيت خارجها بعيدةً عنهم إلىٰ الآن.

كعادتي كل صباح، عاينت الكيلوغرامات الزائدة فوق الميزان، آخذةً شهيقاً عميقاً لأغشّ مؤشره! أتأكد من قدرتي على ارتداء فستان طاغي الأنوثة، هدية من راشد بمناسبة ذكرى ميلادي الثامن والعشرين.

بنطالي الجينز، رفيقي في الجامعة، لم يكن على مشجب الملابس. نكشت الدولاب والجوارير، متلفّظةً بكلمات نابية على نيروشا. دائماً تعبث بأغراضي وتوترني. وجدته بعد أن قلبت محتويات الغرفة رأساً على عقب. حشوت حقيبتي بالدفاتر، والأقلام، والأدوية والمسكّنات. وتكدّستْ الأساور المزركشة حول معصمي.

خالتي المقرفصة أمام نار حزنها لا تردّ التحية، فهي في عالم آخر.

حافلة الجامعة على وشك التحرك. ركبت بخطوات عرجاء. أنفاسي جيشٌ من الدبابيس تدق صدري. دسستُ جسدي بصعوبة في علبة السردين البشرية. الحافلة مكتظة، مضغوطة، ورائحتها مميزة. بالكاد استطعت تثبيت ساقيّ المتشنجتين، بسبب المشي السريع. أنياب الألم تغرز في عظامي.

أقصى أمنياتي أن نصل سالمين. ظلت شفتاي تلهجان بأدعية وابتهالات كي لا يدوس السائق على الفرامل فجأة!

راديو الحافلة يموج بكل ترددات عن أحداث الربيع العربي، تقلّبه أصابع السائق ما بين الاعتصامات في ميدان التحرير في مصر، وحالة

توتر بعد ثورة الياسمين في الشوارع التونسية. وفتاتان تجلسان أمامي، تتابعان بشغف، على جهاز «الآيباد»، أحداث المسلسل التركي.

التفتُّ صوب فتاة تقف بجانبي، اختلستُ النظر إلى محفظة نقودها، تضع فيها مجموعة من الصور، يا ترى؛ تلك السيدة، هل هي والدتها؟ الطفلة بجديلة شقراء، أختها؟ الشاب الجميل صاحب الشاربين الكثيفين، زوجها أم حبيبها؟

فجأة رمقتني بحدة، فلذتُ بابتسامة ساذجة وأدرت وجهي نحو النافذة.

سهم كيوبيد

احتساء القهوة الصباحية مع زميلاتي في كافتيريا الكلية، له طقوس خاصة. تعليقات، انتقادات وثرثرة. حتى الأساتذه لهم نصيب لا بأس به من النميمة اليومية، فلا مفر من ذلك!

من بعيد هرول نحونا قلب أحمر كبير، محشوّ بالقطن على شكل دُمية يُخفي هوية حامله. يمسك به أحد زملائنا في الكلية، صاحب البنطال ذو الخصر الساحل. سألناه عندما اقترب مستفسرين بصوت واحد:

– من أين لك هذا يا حميدو؟

وقف واثقاً من نفسه، يتكلم بحروف ملدوغة، وخنّة في الأنف. نحاول فك طلاسم كلماته. أخيراً نفهم أن الهدية مِن..

مِن؟

حبيبته!

حتى إنه اتصل بها طالباً منها أن تكلّمنا حتى نصدّقه!

حيرة.. تعجب.. دهشة.

عجيبٌ أمرك يا حب، الجميع يتمنى أن يصيبه سهم كيوبيدك، كإشارة بأنهم محبوبين ومُحبين. فالحاجة للقبول تدفع الشخص لافتعال الحماقات، في سبيل هرمونات السعادة المتدفقة مع مشاعر الحب: الفيرومون، الدوبامين، الإندروفين والأوسيتوسين.

قدمت أوراقي لرئيس القسم بخصوص الحلقة الدراسية في الصين، ثم دخلت المحاضرة الأخيرة في البرنامج. وهناك، شردت وأنا أفكر بالرحلة غير منتبهةٍ للأستاذ. قلمي يخط على الورقة البيضاء بعض الكلمات الصينية، فالحرف الذي يمثل كلمة الأزمة في هذه اللغة يتألف من حرفين ثانويين: أحدهما يعني الخطر والثاني يعني الفرصة. الصيني القديم عَلِمَ بفطرته أن ثمة جانباً مشرقاً في أسوأ الظروف، إذا واتت المرء شجاعةُ البحث عنه.

مر النهار بتسارع لم يسمح لي بتعديل هيئتي، ودَعْكِ وجهي بالكريم الواقي من الشمس. دخلت إلى دورة المياه قبل أن أغادر، وما أدراك ما هي! كهف شيطان، تستقبلك قهقهات مفتعلة، لا تميز الفتيات بسبب كثافة ضباب السجائر، تختلط معه رائحة ساندويش وتوابعه.

اشمئززتُ من الأجواء، لكني مضطرة. أبدو كحيّة تسعى بين الطالبات. أخيراً وقفتُ أمام شبه مرآة، بعد أن ابتعدتُ عن فتاة حجبتْ عني الرؤية، كانت تثبت ناطحة سحاب على رأسها تحت حجابها المفتعل، والملابس التي تعتصر تضاريسها.

قُبلات مرسومة بأسلوب فظّ بقلم تلوين الشفاه. هنا استخدام آخر للمرآة، التعبير من دون قيود عن الأحاسيس والمشاعر. لا أحد يعرف هوية الفاعلة، هي رسالة ضمنية بين السر والعلن!

لمعة ذهبية في الخنصر الأيمن أعرفها تماماً. كنّ يقفن بالقرب مني، طالبات يحدّقن بوهج البهجة في يد إحدى صديقاتهن. يتهامسن، وزلزال، بقوة عشر درجات على مقياس «رِختر»، ينبعث من أنفاسهن المتأججة داخل صدور محتقنة بالغيرة.

عزيزتي هل فزت بمن تحبينه ويحبك، أم إن فرحتك فقط لأنك خُطبت قبل بقية رفيقاتك؟ هل هي لهفة الاستمتاع بحالة حب وهمية، تحت تأثير قصص حب متلفزة، أم خطوبة تُكَلل حالة مشاعر حقيقية؟

هروب من بيت الأهل بسبب ضغوطات أسرية، أم رغبة في تكوين أسرة سعيدة تتطلب العمل والجهد، الذي لا يذلل صعابه سوى حب يجمع قلبين؟

أسئلة كثيرة جالت خاطري وكزتها قلادةٌ على شكل بومة، ترتديها فتاة وقفت بجانبي. طمست المسكينةُ ملامحها بمساحيق تجميل فاحشة، فبدت ككائن مضيء ذاتياً.

كل هذه الألوان في سبيل جذبك يا حب؟

أقترح على الجامعة أن تقدم مسرحية «تشيترا» للفيلسوف الهندي طاغور، على خشبة مسرحها بإخراج معاصر، عسى أن تُفهَم الرسالة!

مدينة روحية

كان عليّ اللحاق بالحافلة الأخيرة، والفرار من مشاجرة وعنف اشتعل بين الطلاب في المبنى المجاور لكليتي، وصراخ الطالبات يتردد صداه. أجواء الظهيرة كثيفة. قطرة عَرَق متشبثة بأرنبة أنفي. قاومت الحرارة المتوهجة بأطيافها البرتقالية. قدماي تسلّختا بسبب لسعات الحذاء اللعين الحارقة، لأنني لم أرتدِ جوارب سميكة تقيني احتكاكه بجلدي. قادتني الخُطى بعد جهدٍ نحو الجهة الجنوبية الشرقية لجبل اللويبدة، حيث شارع أحمد شوقي، لأصل إلى تقاطعه مع شارع مؤنس الرزاز.

آه يا مؤنس، أين فارسك متعب القحطاني (قبل أن يُدَجَّن) يخرج من قصتك؟! أجده يبزغ بعينيه بوميضهما الخرافي. يرسل جوادُه الأبيض صهيلاً يهتز له كل قلب. أشكو له العنف الجامعي، وأحوال الطلاب وقلوب الطالبات و... و...

لكن، بدلاً منه ظهر جاري صاحب النظارة السوداء، بعينيه اللتين انطفأ نورهما، يلوّح بعصاه متحسساً طريقه. قلبه يتوق لإكمال دراسته في الجامعة. أحد المارة عطف عليه، وساعده في قطع الشارع إلى الجهة الأخرى.

يوماً ما سأجعل العالم أفضل، فـ«كثيرٌ من الناس يرون العمى في العين فتأباه أنفسهم، أمّا عمى النفس فلا يرونه ولا يستوحشون منه».. هل كان أفلاطون يتحدث بلساني؟!

أفلاطون.. أفلاطون..

جبل اللويبدة مناسب ليصبح مدينتي الفاضلة؛ يُخلى من الناس، يُسوَّر من جميع جهاته بأسوار عالية، وتُجعل له بوابة واحدة للدخول من ناحية الشمال قرب بيت «تاتا».

يغدو مدينةً روحانية تعليمية. تتحول المباني إلى مراكز تُعلّم الحكمة والتأمل. وأخرى للشفاء بالطاقة وعلم الريكي، مدرسة للرقص الصوفي، إحياء علوم الطب والفلسفة، تدريس فلسفة الفارابي وكونفوشيوس وسواهما.

هل وشوشتني عاشقة الجبل بحكمتها المطلقة.

أم إن الأوركيدا تبوح بِسر خفيّ؟

تؤسسَّ مكتبة كبيرة في المبنى القريب من شارع كلية الشريعة، مسارح متتالية بجانب مسرح عمون على طول شارع مرتضى الزبيدي من الجانبين، تعرض مسرحيات وتدّرس هذا الفن، شارع عمر الخيام تُحيى فيه سينما الخيام، وتؤسَّس دور سينما أخرى على امتداده. تُقسَم لمناطق منظّمة بحسب النشاط.

لا، سأعيد التخطيط من جديد، بتوزيع جديد تبعاً لمسارات الطاقة في الأرض. يأتي الناس إليها ليتطهّروا من أدران الدنيا، يطلبون السعادة وراحة البال، وتحقيق العدالة، عدالة النفس.

أريد بيتاً لتحقيق الأحلام.

بيتاً للاختلاء بالنفس.

بيتاً للحب.

شيرين، استيقظي. ما كاد صوتُ عاشقةِ الجبل يصدح داخلي، حتى سدّدتْ كرةٌ هدَفها على ظهري المنحني، قذفها ولدٌ شقي يمسح بملابسه المدرسية، ذات الأقساط المرتفعة، يديه المتسختين، وحقيبته طريحه الرصيف، تلفظ الكتب والدفاتر.

كانت الكرة كفيلة بإيقاظي ليرتعش جسدي كله وينتفض. لا تقلقوا عليّ. بلعتُ قرص الدواء لترتاح أعصابي المتشنجة!

لم يخبرني تميم عن كيفية العناية بالزهرة، وكمية المياه. حاولت أن أتصل به أكثر من مرة، لكن خطّه مشغول.

شددت الخُطى لأنعطف يساراً في شارع سعيد الكرمي، دوار المتنزّه. بضع خطوات أمام المتحف الوطني للفنون الجميلة، تفصلني عن منزل «تاتا».

أين «تاتا»!

هل تذكرتم الطريق؟! يوماً ما إذا تعبتم من الدنيا دُقّوا بابها، كلما حِرْتُم أيّ الطرق تسلكون في حياتكم، اسلكوا مسار بيت «تاتا».

ستكون هناك، تنتظركم تحت شجرة التوت الحنونة، تسمع آهات قلوبكم، تَشْكون لها محالَ الدنيا، وتغيُّر أحوال الحب. لن تسألكم من أنتم، لأنّ همها راحتكم.

ثاني منزل إلى اليسار، في شارع ابن حزم الأندلسي. هدوء نسبي في الأجواء، بدّدَهُ جرس الكنيسة القريبة يقرع عالياً. قلبي سقط ليعُلق بين قدمّي، وروحي تأرجحت مع حركة الجرس المعدني الكبير. أصابعي انكمشت وغدت باردة ومتيبسة رغم الحر. لم تصل لجرس الباب، لكن قامتي استطالت تبحث عنها في البيت.

مثل طرقات المطر القادم في آخر أيلول، دققتُ على الباب بوجل، أجابني صدىً بعيد تردَّدَ بين حجرات قلبي الأربع، كانت غرفتها خالية.

تجمدتُ من الهلع لحظة برزتْ من ذاكرتي، وأمام ناظري، لوحةُ الكابوس لـ جون هنري فوزيلي، المشحونة بالرعب والترقب. تراءىٰ لي

أن الغول يجثم عليها بمنظره القبيح، ومخلوق يشبه الحصان بالقرب منها يتأملها، ولا أستطيع إنقاذها لأن ستارة حمراء تغشى بصري وتخنق أنفاسي، فأصبحت أصارع داخلها لأخرج.

ناديت بكل قوتي:

– «تاتا».

الخادمة قادتني لشرفة المطبخ. أجهشت بالبكاء وأنا أسألها:

– أين «تاتا»؟ أين؟

ارتميت في حضنها لحظةَ لمحتُ طيفها بين دموعي، الخوف طائر يتخبط داخل قفصي الصدري فزعاً عليها، ويدي ترتعش بقوة.

تفتح لي ذراعيها وتسألني:

– *مالك يا سِتّي يا حبيبتي؟ اسم الله عليكِ.*

حَمَام الدار

أحياناً لا نشعر بالوقت والدقائق كأننا سقطنا في ساعة الزمن، لنتلاشى في الفراغ. هذا ما شعرت به وأنا أتوسد ذراعيها. جلستْ «تاتا» على وسادتها الأرضية تناجي الحَمَام في القفص الخيزراني بعينين عابدتين. أراقبه معها. أتأمل وأفكر.

علاقتها به لها أبعاد روحانية عميقة في وجدانها. علامة الخير السخيّ القادم من الرحمن، السلوى للمحزون، مفتاح لأسرار الحياة، مثال الأمومة والوفاء اللامتناهي بين ذكَرِه وأنثاه.

كَفّي نائمةٌ داخل عُشّ يدها بعد أن قَبّلَتْه برّقة. رفعتُ رأسي وأدرته بعض الشيء بحركة بطيئة نحوها، اعتقدْتُها فاقدةً للوعي، لولا حركة بسيطة من شفتيها تهمس للحمام بغمغمةٍ عذبة.

يبادلها الحَمَامُ هديلاً رقيقاً.

ما بين هديلٍ وهمس، همسٍ وهديل.

جعلني المشهد حائرة، ضائعة بين الاحتمالات. هل حضر الحزن على جناح ذكريات الماضي؟ أم هو حاضر ليست راضية عنه، ينقر مزاجها باستمرار؟!

لحزنها طقوس خاصة. صنعت بداخلي لغزاً غامضاً، تشابكت فيه غابة أفكاري، طالت مدته هذه المرة، وأخذ منحىً آخر جعلها تلازم البيت.

أحاول إنزالها من سماوات الشرود:

- هل تذكرين أهزوجة «حَمام الدار»؟

تتبسم ويتغير لون وجهها بالحياة من جديد، تدندن بصوت رخيم، وأعيد من ورائها وهي تسحج[1] بكفيها:

- *ما أحلى حمام الدار وما أحلا زغاليلو.. حبيبي بالحمام يمو زغرتيلو.. ما أحلى حمام الدار ما أحلاه يومِنْ عَشّشْ.. حبيبي بالحمّام بالريحة بيترشّشْ.. ما أحلى حمام الدار معشّشْ بالليمونة.. حبيبي بالحَمّام هاتولو الصابونة.*

دخل راشد مع بومته، فغيرت«تاتا» مجرى الأهزوجه فجأه وعلا غناؤها:

- *قوم اسمع البومة.. إيش برجمت قالت قالت يا ازمقنا.. ليالي السعد زالت.. قوم اسمع البومة.. إيش برجمت في الليل.. قالت يا ازمقنا.. ليالي السعد زالت..*

تبهتُ ويختفي النغم في جُحْرِ حلقها. أسلّطُ على راشد نظرة غضب وألوّح له بيدي:

- لو سمحت. اخرج أنت وبومتك ذات الوجه النحس من هنا.

(1) تسحج: تصفّق.

طلبتُ أن أوصلها لغرفتها، استلقتْ على السرير شبه غائبة عن الحياة، جثوت على ركبتَيّ قربها، فما عادت ساقاي تتحملان رفعي. شفتاها ترتعشان بأنفاس محمومة، غطاؤها أصبح دافئاً من حرارة أبخرة جسمها، احمرّ خدّاها، اقتربتُ من وجهها حتى لامس وجهي، وهمستُ لها بسورة الفاتحة.

قابلتني من الناحية الأخرى للسرير، أمتِعَتُها المُرْهَقةُ من العقدة المربوطة بالزمن، متهدلة القماش، مرتخية فوق صندوق خشبي، يفوح منه شذى ورد.

يوماً ما عندما تزورونها، لا تسألوها عن هذه الأمتعة، سأخبركم بالقصة!

بعد أن توفي زوجها، ذهب ابنها مصطفى لإحضارها، من قرية «مسكة»، قضاء طولكرم، في فلسطين، لتعيش مع عائلته في عمّان. رفضت الفكرة، بكت وعاندت، لم تنفع أيّ حيلة معها، فطلبتْ من فلذة روحها أن تذهب معه في زيارة فقط، أخبرتْ جاراتها وقريباتها أنها ستعود في القريب العاجل، وبعد أسبوعين من وجودها هنا، حزمت أمتعتها، تريد العودة، وها هي تنتظر حتى الآن أن يصحبها ابنها إلى «مسكة».

صرخ هاتفي بإلحاح. كتمتُ الرنات وأسرعت نحو صالة الجلوس.

بومة مينيرفا

أردّ بحذر:

– هاالو.

قال تميم:

– كيف الحال؟ آسف، انشغلت بعض الشيء. تعلمين أنني أقضي يومي ما بين الجامعة والمحل فتتراكم المهام، كيف أوركيدتك؟

– الحمد لله أنا بخير. لكن لم تخبرني عن كيفية العناية بها؟

– صحيح، انشغلت بموضوع تنسيقها. سأخبرك عن ذلك.

لم أكن أشعر بوجود أربع عيون مشدودة نحوي. راشد وبومته يحدّقان بي من بعيد. فور أن أغلقت الهاتف شردتُ في رسومات السجادة، أتتبع بنظري غصناً وزهرة، حتى توقفت أمامه غير مدركة لما سيحصل.

ارتعدت فرائصي عندما رفعتُ رأسي. جلس راشد في إحدى زوايا الصالة شبه المظلمة، مصوَّباً سؤاله نحوي، بنبرة تقمّصها بعد دراسته القانون. نصب لي مقصلة التحقيق ليقطع عنق إجاباتي في محكمته التراجيدية:

– أما زلت تترددين على محل تميم وتحادثينه؟

أجبته بنوعٍ من التحدي، أطرح الأسباب لأتغلّب على جُبني:

- عندك مانع؟ سألته عن كيفية العناية بزهرتي. لا تَنْسَ، فلتميم وشقيقته رهف الفضل، بعد الله سبحانه، في أنني أقف على قدمي، وأواصل دراستي الجامعية. ثمّ إنني بالكاد استطعت أن أغير مزاج جدتي، كي أتحدث معها، لتحضر أنت وبومتك. أنت تعلم كم تكرهها.. أُفّ!

قام من مجلسه متقدماً بحركة مسرحية بطيئة. تراجعتُ للخلف والخوف يصوغ الهسيس في أذني.

قال راشد:

- لا أفهم لماذا تتشاءمون منها؟

- من تقصد؟

- العرب يتشاءمون من البومة.

رفع اليد التي تحمل البومة للأعلى وواصل حديثه:

- ضرب هيجل مثالاً جميلاً عن هذا الطائر فقال في إحدى عباراته الشهيرة: (بومة مينيرفا لا تبدأ في الطيران إلا بعد أن يرخي الليل سدوله)

- ومن هي مينيرفا؟

- إلهة الحكمة عند الرومان، والمقصود بها الفلسفة، فهو يعني أن الفلسفة لا تبدأ إلا بعد أن يكتمل الواقع الفعلي وتنتهي عملية تطوره، فتأتي الفلسفة لتحلل هذا الواقع المكتمل.

سألته باهتزاء:

– هل انتهيتَ، أم بقي شيء آخر تريد أن تتحفني به يا فيلسوف زمانك!

بهت وهو يرد:

– انتهيتُ، لماذا؟

– أرىٰ أنك تأثرت كثيراً بسلسلة أفلام هاري بوتر، بسبب إقامتك الطويلة في لندن، وأصبحت تحب البوم. أليس كذلك؟

ردّ بامتعاض:

– شكراً شيرين.

وتابع بسخرية:

– خطرتْ لي فكرة، سأسميكِ شيرين الصينية، دعي كونفشيوس ينفعك!

مددت لساني في وجهه، وشددتُ عينيّ، بشكل جعلهما تبدوان صغيرتين ومضحكتين، مقلّدةً أشكال سكان شرق آسيا، فباغتني بتقريب البومة من وجهي. علت مني صرخة من شدة الفزع، تلتها صرخات أصغر فأصغر، وأنا أقفز بحركات بهلوانية، غير قادرة علىٰ السيطرة علىٰ خوفي، لأسقط في النهاية ممدّدةً علىٰ ظهري، بعد إنزلاق قدمي تحت السجادة.

بشـــرى وأمل جديد

لن أنسى ما حييت ملامح أمّ راشد المنتفخة بالغضب، عيناها ترميان بشرر، ونقطة دم انفجرت من أثر عضّها لشفتها السفلى.

وبّخته على تصرفاته الهوجاء، هل تعلمون ماذا قالت له؟

نعتته بالطفل. كل شهادات الحقوق، التي حصل عليها، لم تغير من تصرفاته الفوضوية. شعور بالطمأنينة يجعلك تضع أسلحتك اللسانية أرضاً، وتخلع عن عينيك نظراتك الشيطانية، بعيداً عن أحبّتك.

أخفيت ضحكاتي الساخرة عليه، ففضحتني أنفاسي.

قالت أمّه بعد أن هدأت وراقتْ ملامحها:

– عندي خبر سعيد. سلمى حامل، أخبرتي قبل قليل على الهاتف.

قلت:

– غير معقول، يا ربّ ما أكرمك.

راشد حائر بيننا والدهشة تحكّ رأسه. يقاطعنا ليستفهم:

– مَن سلمى؟

قالت أمّه:

- زوجة أحد أولاد عمي، تزوجها بعد أن التقى بها في مصنعه الخاص بالملابس النسائية في بيروت. جاءت مهاجرة مع والدتها، على متن باخرة خاصة من ألمانيا باتجاه فلسطين للاستيطان. مرت السنون لتصبح عاملة في مصنعه. ثم انتقلت معه إلى عمان، هرباً من الحرب الأهلية.

تابعتْ ونبرة فرح ممزوجة بالبكاء تربك كلماتها:

- مضى على زواجهما خمس عشرة سنة تخلو من بكاء طفل. لا يملأ أركان بيتها سوى حركة ماكينة سنجر. تُحيك بها ملابس سيدات مجتمع عمّان المخملي. واليوم زفت لي خبر حملها.

شردتُ لحظاتٍ أتذكر موقفاً ليس بالبعيد. قلت:

- المرة الوحيدة التي رأيت فيها سلمى، كانت تحتسي فيها القهوة مع «تاتا»، تصف عشّاً وجدته على الحافة الصغيرة لشباك غرفتها، فيه بيضتان صغيرتان مرقّطتان، بلون بنّي رقيق، يتناوب الرقودَ عليهما زوجٌ من الحَمام. يومَها أشرق وجهها. لقد بشرتها الحمامة بخيرٍ قادم.

ساد السكون بيننا ولم ننتبه إلا على خفقات جناحَي البومة فوقنا بسلام، انزلقتْ على أنفي ريشتُها البيضاء، فالتقطتها لتبقى ذكرى لخبر سعيد، وشقّتْ بسمة طريقها على شفتي.

دَعْني

أخذ راشد يتوسَّل كي يرافقني للبيت، راجياً أن أسامحه. حدجته بنظرة لوم، ورجوته أن يدعني وشأني.

انزعجت من تصرفه الأرعن. بالكاد حاولت تغيير مزاج «تاتا» لأخرجها من غيابةِ عزلتها. سألتها عن سر الحزن الذي تسببتْ به زهرتي البريئة، فأفسد راشد الأمر عليَّ برمته.

خبرُ حمل سلمىٰ كان الأجمل في ذلك اليوم. لقد زرعت «تاتا» معنىٰ الخير القادم من الرحمن، والتفاؤل بوجود الحمام. كم تدهشني عطايا الله التي لا تنتهي!

لم أحدد شارعاً معيناً للعودة للبيت. تركت قدمَيّ تقوداننني، نحو مسارات عدّة بين الأبنية والمساجد والمتاجر وصالونات التجميل والكنائس، بشكل عشوائي ودون اكتراث لطول المسافة.

تلتفّ شوارع سفح اللويبدة وتتلوىٰ مع إيقاع حركة الانحدار صعوداً حتىٰ قمة الجبل. تتخلل تلك الشوارع وتتقاطع معها العديد من الأدراج والأزقة التي تصل المنازل والشوارع بعضها ببعض. أشرد في

فراغ الشوارع، تاركةً للنسمات أن تلامس وجهي وتقرص أنفي ليغدو أحمرَ بارداً.

المشي يساعدني في التخلص من التوتر. قلقي من أي شيءٍ يجذب رأسي للأسفل، أحدق بحذائي ذي الدعامة الحديدية وأتتبع أشباه خطواتي. أما حيرتي في أمر، فتطلق عنقي في زوايا الأسقف، أفتش عن بارقة سلام. توشوشني عاشقة الجبل بأفكار كالومضات، تلتقطها من الكون، تشعلها لامعة ومُلهمة في ذهني، لأدونها طازجة في كشكولي الصغير الذي لا يفارقني.

قطعت الصمتَ نغمةُ سيارة توزيع أسطوانات الغاز التي مرت في الشارع. في عام 2009 خلال فترة علاجي، وبداية التحاقي بالجامعة مرة أخرىٰ، ارتبط صوت نغمة جديدة لسيارة التوزيع، بأولىٰ خطواتي بعيداً عن الكرسي المتحرك. بدأ مشروع لتغيير النغمة بعد دراسة موسيقىٰ الناس التي عاشت في المنطقة. جاء اللحن خليطاً من أنماط عدّة. لكن المشروع لم يستمر، وعادت النغمة القديمة.

خضعتُ للعلاج الصوتي القائم علىٰ التنفس العميق، والإصغاء للنَّفَس والتأمل المتواصل، لأتواصل مع أصوات الطبيعة. اهتممتُ في تلك المرحلة بعلم الفلك، والنجوم، والكواكب والظواهر الفلكية. فالتوافق

بين الجسد والصوت أساسُ الكون، وبوابةٌ لتعرف ذاتك وتلج في جوهرك.

لهفتي، لأخبر خالتي هيام عن حَمْل سلمى، انطفأت جرّاء ردة فعلها الباردة، فآثرت تغيير الموضوع. طلبتُ منها تناول العشاء معي، لكنها اعتذرت.

لا يهم، تعوّدت!

بالكاد استطعت استساغة ملعقتين باردتين من طبقٍ شبه مغطى للمفتول والدجاج في الثلاجة. حاولتُ استدراج النكهة الأصيلة للطبق من ذاكرة لساني، لكن الطعم جاء بمزاج منحرف عمّا عهدته، بلعتُ ما في فمي بامتعاض ومضيتُ لغرفتي، أجرّ شهيتي الضامرة.

أين عهد خالتي هيام القديم. كانت معجونة بالحياة والفرح، تشبه الممثلة سعاد حسني بحركاتها وملامحها، تهتم بمظهرها وأنوثتها، تعدّ ألذّ الأطعمة، تُعلّمنا الرقص والغناء، تبتكر مشغولات يدوية مميزة.

استسلامها للحزن على فراق الأحبة، جعل كل تلك المباهج تتبخر بلا رجعة.

فهي تمكث في البيت من دون حراك، بساقين جفّت فيهما الحياة، وبرزت فيهما عروق داكنة. وجهها شاحب بلون الشموع، لا يفارقها

وشاحُ زوجها المتوفى، تضعه على كتفيها. تتشمّمه، تقبّله، وتمسح فيه دموعها. تقضي مساءاتها شاردة بجمود في التلفاز، أو تبكي في زوايا البيت بنحيب امرأة ترمّلت قبل دقائق.

أوصاني تميم أن تبقى جذور الأوركيدا رطبة. تفقدّتُها وأغلقتُ النافذة. لا أريد سماع أسود تزأر، ولا مسلسلات حب مدبلجة، ولا أخبار الربيع العربي، أريد أن أختبئ تحت عباءة النوم.

اصطدمت بالحقيبة الكبيرة، فتحتها فوجدتها تصرخ جائعة، أغلقتها فمزاجي غير مناسب، لأملأ جوفها البارد. هل هُيئ لي ذلك بسبب جوعي الشخصي؟

بعد دقائق كتبت على صفحتي على الفيسبوك كلمات للشاعر نزار قباني:

«ينتابني في أول الخريف

إحساسٌ غريب بالأمان والخطر

أخاف أن تقتربي.. أخاف أن تبتعدي».

الخروج من الواقع بـ..

إن آنَسَ إغلاق الهاتف النقال، تأتِ رناته في الصباح لتعكّر مزاجي. هذا الذي لم أحسب حسابه. زميلتي غادة تقترح أن نلتقي في مرسم الجامعة، فلا محاضرات لدينا.

فكرة جيدة. أكيد سأوافق. غادرت المنزل بعد أن وضعت الطعام لعصافيري اللازوردية في القفص الصغير، وصلت للمرسم، وثرثرنا قليلاً.

أخرجت اسكتشات الأوركيدا. تفحصتُ ما رسمته في أول ليلة لها، حاولت استخراج بعض الصور لإعادة رسمها بشكل أفضل، اكتشفت أن ما رسمته عبارة عن ظلال بتدرجات مختلفة. ورثت عن أبي حب الرسم، وظلت هذه الهواية ترافقني مع ازدحام أحداث الحياة.

بالقرب منا في القاعة الكبيرة، جلس أستاذ تاريخ الفن وبعض الطلبة يناقشون أحد الموضوعات عن المدرسة الانطباعية التي قامت على منهجية خاصة في التعامل مع الظلال في ذلك الوقت، وتقوم على تغير الألوان في المكان الواحد، من خلال تغير الضوء الذي يسقط عليه.

لكن النهضة الفنية في إيطاليا كانت سباقة إلى ذلك قبل خمسة قرون، فقد سعى الرسامون الإيطاليون إلى تطوير الرسم، برسم المشاهد بأبعادها الثلاثية لتتطابق مع الواقع.

ومنذ ذلك العصر، أصبح الظل عنصراً أساسياً في فن اللوحة، يستوجب الدراسة والإتقان في التعامل معه على قدم المساواة مع اللون والخط.

وضعت مشغّلَ الموسيقى في أذني لأركّز في ما سأرسمه، لكن شغفي بتاريخ الفن جعلني بعد دقائق أُزيل السماعات وأنصت للأستاذ:

- ذروة لعبة الظل في فن الرسم كانت في القرن السادس عشر، عندما أسس الرسام الإيطالي كارافاجيو مذهباً فنياً عُرف باسم المضاء والمظلم، يقضي برسم مشهد داخلي مضاء بمصدر واحد كشمعة أو مشعل والاكتفاء برسم بعض الحواف المضاءة من المشهد، وإغراق الباقي في الظلام.

غادة مستغرقة بما ترسم، وفي الأثناء طارت أفكاري نحو«تاتا»، رأيت نفسي أحادثها وتفضي لي بمكنون قلبها.

بلا سابق إنذار سقط كرسي الأستاذ من شدة انفعال لا أعرف سببه، فعدت لوعيي واستأنفت الاستماع إليه:

- أهمية هذا المذهب الفني، تكمن في أنه من خلال تعتيم الظلال، تبدو مشاهدة بشكل عام عبارة عن مساحات ملونة مقطعة

ومتناثرة، وغالباً ذات تركيب يتميز بكثرة المنحنيات والالتواءات، فكانت بذلك الأساس الذي قامت عليه مدرسة الفن الباروكي ككل، والتي عاشت لنحو قرنين من الزمن، قبل أن يعود رسم الظلال إلى عقلانيته وواقعيته في المدرسة الكلاسيكية وجميع المدارس اللاحقة التي اهتمت، أياً كانت درجة اهتمامها، بمشابهة الواقع.

زقزقةُ المعدة إعلانُ الجوع للعلن! فتخيلوا عندما تكون هناك معدتان! يتأجج السؤال القوي؛ ماذا نأكل؟ اختيار الطعام بحد ذاته معضلة. أخرجت قرص الدواء لأتناوله في موعده المحدد. لفتتْ انتباهي مقولة عن الرسام الانطباعي رينوار ختم الأستاذ بها درسه: «ليس هناك ظل أسود. الظل دائماً له لون. ففي الطبيعة لا يوجد غير الألوان، والأبيض والأسود ليسا لونين».

لم يَسر الهسيس في أذني أو ترتعش يدي. عندما أرسم أرتاح، ولا أشعر بأعراض تستدعي تناول المهدئات.

مر اليوم بوتيرة مرتخية.

ركبت سيارة سرفيس متوجهة إلى شارع الباعونية الطويل، بعد وداع غادة. تمضي السيارة بسرعة وكأننا نسقط في نهاية جرف عميق. ننزل في منحدر الشارع المتقاطع في الفضاء الرحب مع قبة ومأذنة مسجد

الملك عبدالله المؤسس وبرج من أبراج مشروع العبدلي الجديد. الشفق البرتقالي وردةٌ كالدهان تنفجر في سماء الغروب، وتذوب بعشوائية في سائل السماء المفتوحة.

عندما وصلت للمنزل، دخلت غرفتي وفتحت جهاز الحاسوب، عبثت بالشبكة العنكبوتية، أتأمل اللوحات العبقرية للفنان فيرمير، والتي تجلّت في رسم المشاهد الداخلية على ضوء الشمس الشاحبة في شمال أوروبا. أما رامبرانت فقد اعتمد على ضوء الشموع للإنارة والتظليل.

أزّ بابُ غرفتي، خالتي تسأل:

- شيرين. لماذا اشتريتِ حقيبة؟
- سأسافر إلى الصين.
- لماذا؟
- للالتحاق بحلقة دراسية في جامعة بكين.
- يوجد في المخزن حقائب مختلفة. لماذا لم تختاري إحداها، بدل أن تكلّفي نفسك عناء الشراء.
- شكراً.

في تلك اللحظات مرت غيمةٌ حبلى بخفة في السماء، أرسلت زخات مطرية ناعمة، انسلّ حنانها إلى غرفتي وتناغم مع عطر الأوركيدا، فتدثرتُ بدعاء حفظته عن «تاتا»، وغفوت.

«يا اللي ظلمتو الحب»

رائحة القهوة في الصباح ألذّ من طعمها. أراقب أصابع الشاب الرشيقة في الكافتيريا الصغيرة أمام الجامعة، يغلي المحبوبة السمراء، تفور من جوفها رغوة تكلل سطحها. طلبت ألّا يغلقها بالغطاء البلاستيكي، لأستمتع برائحتها المنعشة.

يصدح غناء أم كلثوم من الكافتيريا المقابلة. الهواء رطب، وهمّته ثقيلة في نقل الألحان. بالكاد استطاع أن يحمل لي مقطعاً من سيرة الحب:

«يا اللي ظلمتو الحب، وقلتو وعدّتُو عليه، قلتو عليه مش عارف إيه.. »

هدوءٌ سكنَ خطواتي باتجاه الكلية. ذهني صافٍ، وعاصفة الأفكار في هدنة مؤقتة، ورأسي مملوء بالفراغ! زيارة «تاتا» فور انتهاء المحاضرات هي الفكرة الوحيدة التي تملكتني.

جلست على كرسي تظلله شجرة الصنوبر التي تناثرت أكوازها بكثرة على أرض، تفوح منها رائحة التراب المبلول بالمطر ليلة أمس. هذه المرة حمل الهواء الرطب ثرثرة، توحي بالشجار بين نبرتين ذكرية وأنثوية. لم يكونا غريبين عني ولا بعيدين مني، سأكتب لكم الحوار واستنتجوا دهشتي!

الذكر:

- وَلِهْ، بقولّكْ انقلعي على الدار، ما بدّي أشوف خلقتك.. بدّي لما أوصل الدار أكسرلِكْ راسك، حسابك بعدين.

الأنثى:

- اعطيني مصروفي اللي سرقته مني، صدّقني رح أقول لهم إني أختك، خلّي هدايا قلوب الحب تنفعك، عامل حالك روميو.

أخفيت وجهي بالدفاتر، مُنصتةً للمقطع الثاني من سيرة الحب: «العيب فيكو يا في حبايبكو، أما الحب، أما الحب، يا روحي عليه يا روحي عليه».

كم ضحكت على الانفعال المرتسم على وجوه زميلاتي عندما أخبرتهن بالموقف الطريف الذي شهدته، وصرنا نتبادل النظرات الساخرة إذا شاهدنا ذلك الشاب المفتعل للحب ونكتم أنفاسنا.

أتوقع أنكم عرفتم من أقصد!

المُتَعبِّدة

قبل أن أغادر مررت على رئيس القسم لأتأكد من سير إجراءات التبادل الثقافي. طلب أن أُعدّ ورقة عمل أدبية لمناقشتها في جامعة بكين. ما إن وصلتُ دافعةً بيدي باب السور المعدني، وباليد الأخرى أحمل طبق البقلاوة التي تحبها «تاتا»، رأيتها جالسة في حديقة البيت، تفرط وريقات خضراء يانعة من أغصان الزعتر الطري، بيدين رخاميتين بلون القشدة، انتشرتْ فيها عروق كجداول صغيرة تتسلق ساعديها. لحظَتها، كَبَّرَ قلبي للفرح.

لقد عادت الحياة تتأجج في روحها من جديد، وها هي تدندن بهدوء:

– يا توتة الدار صبرك على الزمان إن جار لا بد ما نعود مهما طوّل المشوار.. يا يابا.. يا توتة الدار.. حلفتك برب الكون لا بد ما نعود مهما طوّل المشوار.. يا يابا..

هتفتُ:

– سلامتك يا غالية.

اقتربتُ من وجهها أتلمس بقايا حزن، أقبّل يدها ورأسها، أتنشّق عبيرها. للجدات رائحة مميزة كطعم المستكة المعطَّرة في طبق الأرز بالحليب.

جال بصري بين الأشجار في حديقة المنزل. من عادتها بعد صلاة الفجر، قراءة الأدعية والمعوذات على الأشجار، ومن بركة الدعاء، تبدو الثمار كأنها سقطت من الجنة.

بالقرب مني، حوض كبير تزرع فيه الزعتر، والبصل، والريحان، والنعنع، ونبات الكولونيا الذي يفوح عطره المسائي الأنيق، مع دغدغة النسمات لعروقه الندية.

أمقت مذاق الزعتر اللاذع ونزع أوراقه. تناولت على مضض غصناً طرياً لأساعدها. أصابعي تتحرك بتوتر، أُعاين غرزة «التصليبة[1]» على أطراف ثوبها الفلاحي.

في إحدى جلساتنا، أخبرتني أن النساء في فلسطين، يطرزن أطراف الثوب وكُمّه والياقة، لمنع الأرواح الشريرة من مسّ المرأة بِشر.

طلبتُ منها بدلال:

– ما رأيك أن تقصي عليّ حكاية؟

تحمستْ للفكرة، عدّلت من جلستها لتصبح شهرزاد زمانها:

– *يا ستي يا حبيبتي، بَدِّكْ أخرفك خرّيفية. أول شي صلّي على رسول الله.*

– اللهم صلِّ وسلم وبارك على الحبيب المصطفى.

---

(1) التصليبة: نوع من أنواع الغرز الخاصة بالتطريز على الأثواب الفلسطينة على شكل خطين متقاطعين.

قالت:

– كان يا ما كان، كان في قديم الزمان، في بنت تتعبد لله كتير، وين ما راحت تذكر الله، تصلّي كتير، بدها طبعاً الجنة والثواب.

وكل القرية سمّوها المتعبدة. سمع الملك عنها من وزيره.. فكر، وفكر: كيف بَدُّو يختبر قوة إيمانها.

في القصة يطلب الملك من جنوده أن يراقبوا منزل المتعبدة، ويذهب إليها ليلاً بعد أن يتنكّر طالباً منها أن تخيط له بدلة بأزرار من ذهب وَضَعها في صرة، على أن يأتي في اليوم التالي لأخذها. طلب الملك من جنوده أن يسرقوا صرة الأزرار الذهبية، فلم تجدها المتعبدة في اليوم التالي. شعرت بالذعر، لكنها تمالكت نفسها وأخذت تبحث عنها بصبر وإيمان.

في الأثناء مر بمنزلها بائع السمك، اشترت منه واحدة، وعندما فتحت بطنها وجدت الأزرار، لأن الجنود ألقوا بالصرة في البحر امتثالاً لأمر الملك. فأكملت خياطة البدلة وتثبيت الأزرار عليها، وعندما جاء الملك وشاهد البدلة تفاجأ وأفصح عن هويته، فأخبرته أنها لم تيأس من فضل الله، بالدعاء والصبر حتى وجدت صرة الأزرار.

ما كادت «تاتا» تنكش بطرف إبرة المتعبدة روحي المندملة، حتى انسكبت دموعي بلا توقف، وأمسيتُ محصورة بين غرزة الألم وخيط الذكرى.

ختمت القصة:

- *وهَّيو ربنا شافاك يا ستي. وصرت تمشي على رجليكي. بعد ما كانوا يقولولك إنك رح تظلّك قاعدة على كرسي متحرك بعد الحادث، صَحّ يا ستي يا حبيبتي.*

اختلطت كلماتها الأخيرة مع تكبير المآذن لصلاة العشاء، وفي أعماقي ترددت الآية الكريمة: «لا تحزن إنَّ الله معنا».

بدلاً من أن أعرف سر قصتها، حاصرتُني بقصتي الحزينة، وتسربلت بآلامي، عرفتُ كيف تنفذ من «سَمّ خِياط» أسئلتي، وتنجو من فضولي برشاقة غزالة.

هبت نسمة هواء فصفقت أوراق شجرة التوت، تداخل حفيفها مع نحيبي وبداية هسيس في أذني يتصاعد.

واصلت قائلة:

- *لا تعيطي. إللي بيعيط ما بحبّ الله والرسول، قولي الحمد لله ألف مرة.*

- أخبريني أرجوك، لماذا مرضتِ عندما علمتِ أنني اشتريتُ زهرة الأوركيدا؟ لماذا؟

سافر وجهها في البعيد المجهول:

– *تذكرتُ أهلي وديرتي. لما سافر أبوي آخ.. ميمتي ماتت على طول غيابه وأبوي..*

أفهم هذه الحركة تماماً. عندما تعبث بالحبكة المتسلسلة على طرف شالها، أعرف أنها تخبئ شيئاً لا تريد الإفصاح عنه.

سألتُ بحدة:

– ما علاقة ذكرى والديك بالزهرة؟

– *ما في شي يا ستي. الله يرضى عليك.*

هزت رأسها بالنفي، محدّقة بتجهم نحو سدر أوراق الزعتر تناولتُ أحد العروق لتكمل عملها ببطء وسكينة، وكأس العين تمتلئ بالدمع الساخن.

سألتها إن كانت ترغب بالذهاب للحديقة، فتحاشت النظر لوجهي.

– *بدنا نحضر «إكراس[1]» زعتر أخضر على العشا، خلّيكِ اتعشي معنا.*

– «تاتا»، لا أحب الزعتر و..

استدارت قائلة:

– *طيب. تعالي يا ستي، يا حبيبتي ساعديني.*

(1) أكراس: أقراص.

فطائر بالزعتر الأخضر

دونت في كشكولي: «تذكَّرْ يا من تتدثّر بالآهات.. في جوف كل محنة منحة، لا يتذوقها إلا الصابرون، ولا يدرك ألوانها إلا المستبصرون بنور الله».

تلك الخواطر السريعة أستقبلها من الكون، أجذب الحكمة والأقوال والتجارب المبثوثة في الفضاء منذ الأزل، فهي لا تفنى ولا يدري أحد ما نصيبه منها، أُعيد إحياءها مرة أخرى في ذاكرة الناس.

صمم الخال مصطفى لـ«تاتا» مطبخاً خاصاً، كمحاولة لإرضائها عندما أصرت على الرحيل. هيأه بما يتناسب مع طريقة طبخها، ويضمن راحتها.

تضع في النملية[1] الزيت والزعتر وباقي المكونات، وفي خزانة خاصة ترصّ علب البابونج، والزعتر، والميريمة، والحنا، والجعدة وغيرها.

تعشق «تاتا» العمل الجماعي في تحضير الطعام، واجتماع العائلة حول السفرة.

ارتبكتُ وبقيت منكمشة كخيط منسول. رمقتني بنظرة تعلن فيها البداية. جلستُ على المقعدة الخشبية القصيرة، واضعة على الأرض

(1) النملية: خزانة حفظ الطعام.

المِعجَـن[1] البلاسـتيكي وفيـه الطحـين، تطلـب منـي بعـض الأدوات والمكونات جلست بالقرب منها ممسكه بإبريق المـاء، لأسـكبه في راحـة يدها المدودة أمامي، ترشه على الطحين الـدبق بتـدرج، لتصـل للقـوام المطلوب.

تنحني بـبطء عـلى المِعجَـن بجـذعها، تعجـن بيـد واحـدة، ثـم ترفعـه كالخطاف. تتكرر الحركة بالتتابع. يرتخـي وشـاحها قلـيلاً عـن رأسـها لتتهدل على جبينها العاجي خصـلة مـن شـعرها الخـروبي النـاعم. وفي النهاية انحنت بكلتا قبضتي يديها، تضغط العجينة لتصبح ملساء.

خطفتُ قطعة بخفة لأتـذوقها، أحـب طعـم العجـين رغـم توبيخهـا الدائم: «*إللي باكل عجين نَيّ بصـير في بطنو دود*». قبل أن تقول جملتهـا المعتادة، سألتها ببراءة:

– هل عشتِ قصة حب؟

طفا لون وردي على صفحة وجهها الحليبـي، وشـدّت نصـف ابتسـامة طرفَ فمها للأعلى.

تركت العجين ليختمر، وانتقلنا نحـو الحـوض لغسـل أوراق الـزعتر. نثرته ليجف على قطعة قماش، وأشارت بحاجبيها نحـو سـلة البصـل. جمعت الكثير من الحبات. فتدحرجت هاربة على الأرض.

(1) المِعجَن: وعاء خاص لتحضير العجين.

التقطت «تاتا» البصلة الكبيرة، وبدأت تقشرها على مهل. قشرة تلو الأخرى وفي أثناء ذلك نطقتْ بحقيقة حبها تحت تأثير غازات البصل. تفتعل التركيز على العمل. ظلت أنفاسي حبيسة صدري، لا أسأل ولا أستفهم، لتسترسل بسرد حكايتها.

أخبرتني أن والدها سافر في رحلة بحرية نحو بلاد بعيدة، عندما كانت صغيرة، فتعهد ابن خالتها صالح بحرث الأرض والعناية بهم، طال غياب والدها، كبرت وتوطدت علاقتها بصالح، وغدت صبية يانعة كغصن نعناع طازج وطري، تبعث له بالزّوادة العامرة بالأكل، ويُحلِّفها بالله أنه لن يتذوق لقمة قبلها.

تتذكر أول مرة بعثتْ بها أمها إلى الحقل، وتضحك كيف أوقعت طبق الطعام على الأرض من شدة خجلها. كان صالح شامخاً قوياً مثل والدها، تراقبه من بعيد دون أن يراها، يحمل لها سلالاً من القش مليئة بالفواكه، واضعاً فوق كل ثمرة غطاء من أوراقها.

لم تكن تعرف أنه الحب، تعدّه نوعاً من الاهتمام والعناية، لكن يا «تاتا» هذا هو الحب الطاهر النقي، وأنت تخفين عني ذلك.

سكتت برهة وطلبتْ مني فرم البصل. وضعت على أوراق الزعتر زيتَ الزيتون والملح والفلفل الأسود. تفرد قطعاً من العجين مع زيت الزيتون، ثم تضع الحشوة. تثني أطراف القرص من جهتين متقابلتين،

رشة حشوة أخرىٰ ثم تغلق الأطراف المتبقية، تمسده براحتيها ليكبر حجمه ويتمدد.

تخرج الأقراص من الفرن قرصاً بعد قرص مشوية ومحمَّرة. اجتمعنا علىٰ سفرة العشاء. اتصلت براشد أكثر من عشر مرات لكن بلا جدوىٰ.

عندما هممتُ بالدخول عليها أحمل كأسين من الشاي الذي يتصاعد بخاره بنكهة الميرمية الطازجة، سمعتها تدندن بأهزوجه لم أتبين كلماتها. سألتها:

- ماذا كنت تدندنين؟

- *بدر يا قمرنا بدر. كان صالح يدبك عليها مع الشباب في الأعراس.*

رجوتها أن تغنيها. قالت بعد أن اعتدلت في جلستها وأخذت تسحج بكفيها:

- *بدر قمرنا بدر، واشرف علينا للدار.. وبعيني شفت المحبوب ع الفرشة حل الزنار.. وبعيني شفته شفته بالحمرة سابغ شفته.. صدرك يومِنْ كشفته، فاحت علبة العطار.. فاح المسك عليّ يا حسرتي يا بيي.. تفاح عَ أمه متدلّي، تفاح علىٰ عيدانه.. لسه ما هل*

أوانه، لحرث على فدانه.. وخلي العمر يولي، والعمر ولى وراح..
مثل عشب المراح، يا ولد يا فلاح.

لم أرها بهذه الروح المنتشية، سعيدة محلّقة، رمشُها يصفق، وجهها ساحة مرج يدبك فيها الشباب، صالح يلوّح بمسبحته عالياً ويقود الدبيكة. عادت فتاة تقف في تلك الساحة تتتبّع صالح بنظرها. تجوس بعينيها خاصرته المنحنية مع النغم، خطواته الراقصة، كوفية رأسه، وحبات عَرَقٍ تلمع من قميصه الأبيض. القلب يبوح بعشقٍ دفين عشش في قلبها.

كان رضاها عن صالح يدفعها لتصنع أقراص الزعتر التي يحب، وإذا امتنعتْ يعلم أنها غاضبة منه. الطعام بينهما لغة سرية للتخاطب البريء. النساء لم يكنّ يفصحن عن مشاعرهن. الحب عندهن عملٌ للمحبوب، طلبُ رضاه ورغبةٌ في تحسين الذات. التعبير بالطعام مفردة من مفردات الحب بلا كلمات.

.

.

يا الله ما أجمل الحب!

جنّة الحب

انتشر الحبر على دفاتر الليل عندما خرجت نحو حديقة دوار المتنزّه، المُطوقة بشارع حسني فريز. بدا المساء ثقيلاً، جثا على صدري، فتفتقت ذاكرتي عن الأحزان.

تدافعت (خراريف) «تاتا» في مخيلتي، وتوالت أطياف شخوصها في الظهور. دَرَجَ الفلسطينيون للتعبير عن الفعل المدهش والحكاية المدهشة بكلمة (خُرِّيفية). الأصل الثلاثي الذي اشْتُقّت منه هو (خرف)، ويعني جني الثمار. و(المخرفة) هي البستان.

تلك الحكايا التي تُدخِلُك غار السكينة، عنكبوت الأفكار يغزل بيته بهدوء في روحك، وتعشش حمامةُ اليقين بالله في قلبك.

أخبرتني في إحدى نزهاتنا أن المنطقة التي أقيمت فيها حديقة دوار المتنزّه، كانت بستاناً كبيراً وجميلاً، يُعرف باسم بستان عبد القادر طاش. تستقبلك الأشجار بثمارها والأغصان بأفيائها الوارفة.

وبعد انضمام الحديقة لمتحف الفنون الجميلة، أُزيلت جميع الألعاب منها. استبدلت بها المنحوتات الفنية. تستقبلك من البوابة الشمالية الشرقية، ثلاث عصافير رخامية. وعلى الجانبين بين الأشجار، وُزعت

بقية المنحوتات الحجرية والمعدنية بأشكالها التجريدية، وهي لفنانين معاصرين.

يراودني سؤال دائماً كلما رأيت المنحوتات، كيف يعرف النحات أن قطعة الرخام أو المرمر سيخرج من داخلها حصان أو عصفور أو شكل تجريدي بلا معالم؟

كئيبةٌ خطواتي بين ممرات الحديقة، خاصة مع أزيز صرصار الليل الذي يستفزّني في وحشة الوحدة.

لولا كلماتها المطمئنة وسلواها وإيمانها الفطرّي الذي بثته في روحي لأصبر وأتجاوز محنتي، لأصبح في جوفي الآن قلبٌ من حجر.

صور قديمة من حياتي حضرت بوضوح، قبل سنوات عند أطراف قدميّ المتحجّرتين على الكرسي المتحرك، وبعد أن يئس الأطباء من حالتي، لأن الشظايا تمركزت بالقرب من الحبل الشوكي، سقط خاتم الخطوبة من يدي، لم يستطع خطيبي السابق أن يواجهني، أرسل والدته لإخباري بقراره الجبان. كان مشروع خطوبة بلا سابق معرفةٍ أو حبّ.

اتكأت على جذع شجرة بجانبي لأسيطر على طنين أذني، لتُسقط عاشقة الجبل سؤالها على رأسي كتفاحة نيوتن؛ هل كان سيقف معي في المحنة، ويصبر حتى أتخطى مرحلة العلاج، ويتمسّك بي بعد ذلك، لو أن الحب ظلّل علاقتنا؟

كأيّ فتاة عادية مسكونة برغبات بسيطة وحلم ببيت وأطفال، مضى الوقت وأنا أتذكر الماضي وأحلم بالمستقبل، إلى أن وصلت للبوابة الثانية، من الجهة الجنوبية الغربية، المقابلة للبوابة التي دخلت منها.

تذكرت موعدي المؤجل مع رهف. عودة راشد من لندن، وحالة «تاتا» الغريبة التي جعلتني أنقطع عن الجلسات العلاجية معها.

التفتُّ خلفي أتأمل الحديقة وأفكر في مخططي لجبل اللويبدة. هذه الحديقة ستكون للخلوة مع الروح، تُزرع فقط بأزهار الأوركيدا، وأضع مقابل العصافير الرخامية الثلاثة منحوتة مرأة بأجنحة للنحاتة الأردنية منى السعودي على المدخل الجنوبي، حارسةً للحب، ومنبراً للتماهي في العشق، وسأسمّي الحديقة (جنّة الحب).

.

.

الجنّةُ هي السكينة.. الطمأنينة.. الفرح.. والمستقبل مع أحبابك.

الصداقة

سآخذ الطريق من أوّلها.. من شارع بيت نوبا لأنعطف إلى اليمين نحو شارع مرتضى الزبيدي حيث تسكن رهف مع أسرتها.

رهف المُعالجة بالفيزوثيرابي، صديقتي من أيام المدرسة، ساعدتني بالعلاج الطبيعي خلال ملازمتي البيت بسبب الألم والفراق.

خلال علاجي مررت برحلة طويلة إلى ذاتي، بدأت بالمعاني والأفكار القادمة من إنصاتٍ طويل لكلام «تاتا». تمارين رياضية، ألم ودموع مع رهف، ثمّ التمعّن بكتب قادتني للتأمل والشك والسؤال مما نمّى شعور الوحشة من السؤال والحيرة فيما يتنظرني وماذا سأفعل؟ كنت واثقة أنني سأصل للنجاة من المحنة.

يمنحنا الله السلوى بالأصدقاء والكتب.

أمدّني تميم بالكتب الأدبية، الروايات العالمية وكتب الشعر، لأشغل وقتي بالقراءة، أهذب روحي، وأتعلم أشياء جديدة. فتح لي آفاقاً واسعة. وفي كل مرة أستخلص رسالة تميم الضمنية من موضوع الكتاب.

الكتب مراهم.

قبل الحادث شغفت بقراءة الروايات البوليسية وقصص الخيال العلمي. أحب التحليل والتفكير. وبعده تغيّر الوضع، إذ صرتُ أقرأ كتب الأدب. قلبي وعقلي لم يكونا قادرين على مجاراة الحياة.

الإرهاق أعياني، والضجر بعثر مزاجي المرتبك، فبعثتُ برسالة اعتذار إلى هاتف رهف وعدت للبيت.

حقيبتي يُرثى لها، جمعت بعض الملابس من رفوف الخزانة، سحبت الأدراج ألملم الأشياء بعشوائية وألقيتُها في عين الحقيبة المعاتبة.

حدّثتني نفسي؛ ماذا أفعل إذا رُفض طلب ابتعاثي للصين ولم أسافر؟! وترني هذا الخاطر وبضيقٍ قذفت ما في الحقيبة دفعة واحدة على الأرض وهربتُ للنوم.

لكن هيهات أن يغمض لي جفن. حلبت ضرع أفكاري علّني استخلصُ منه موضوعاً أكتبه، استجابةً لطلب رئيس القسم. فقررت طرد السلبية من جوفي والتفكير بإيجابية.

بلا موعد

في صباح اليوم التالي، ثلاث طرقات خفيفة على باب غرفتي كفيلة بأن أعرف صاحبتها. خالتي هيام! من المؤكد أنّ الامر لا يتعلق برغبتها في تناول الإفطار معي. أخبرتني أن راشد ينتظرني في الصالة.

نظرت للهاتف بتعجب. لم تردني منه أيّ مكالمة أو حتى رسالة. أخشى الزيارات من دون موعد مسبق. توجهت نحو الصالة كالمجنونة، ورعشة في يدي تجتاح كياني.

سألته:

- «تاتا» بخير؟ هل أصابها مكروه؟

بكل تروٍّ أمسك بكتفي، مهدئاً من روعي:

- لا تفزعي شيري! «تاتا» بخير، أردتُ أن نذهب إلى وسط البلد. هل نسيتِ؟ اليوم الأربعاء، وسأسافر فجر الجمعة. أريد أن أشتري بعض الأغراض، ونأكل الكنافة كما وعدتك، ما رأيك؟

هل يسخر مني راشد! سألته:

- لحظة، نأكل كنافة في الصباح! كم الساعة؟!

- الساعة قاربت على الواحدة والنصف.

- متأكد؟!

- نعم.
- يا إلهي! نمت حتى الظهر!
- هل تريدين تناول طعام الغداء ثم..
- لا، أولاً سأحضر القهوة لنحتسيها معاً، ثم أرتدي ملابسي وننطلق إلى البلد، اتفقنا؟ أنا أيضاً أرغب في شراء بعض الكتب.

ثم واصلتُ أسأله:

- راشد، لماذا لم تأتِ أمس لتناول الفطائر على العشاء؟!
- كنت أتابع قضية شائكة مع أحد أصدقائي.
- يا إلهي! حتى في الإجازة تعمل! أرجوك! ارحم نفسك.
- سأحاول!

وسط البلد مرة أخرى

عند خروجنا من العمارة استرقت النظر إلى تلفاز جاري أبـو إسـماعيل، يحلّق فيه طائر ملون، يفرد أجنحتـه بخـيلاء أمـام شـــريكته، يراقصـها ويتأرجح على الأغصان طلباً لودِّها.

سألت راشد بعد أن ركبنا سـيارة السـرفيس جهة وسط البلد:

- لماذا لم تتصل بي صباحاً؟

- لأنني لا أريد أن أسمع أعذاراً. أحببـت أن أضـعك تحـت الأمـر الواقع!

- هكذا إذاً!

- أجل يا طفلتي!

من شارع إلى رصـيف إلى شارع حتـى وصـلنا إلى زقـاق قـرب البنـك العربي. ذهب راشد لإحضار الكنافة، وتوقفت عند كشك أبوعلي.

خلال بحثي بين الكتب، اقتربتُ سـيدة في الثلاثين من عمرها. اشترت كتابين الأول (ماغي للأبراج) والثاني (ألف باء الطبخ).

فتشت جميع الرفوف، لمحت مجموعة من (روايات عبير) التي أعـادتني لعهد قريب، كنتُ أتلقى فيه التوبيخ مـن أمـي، حـال مشـاهدتها هـذه الروايات بحوزتي.

وجدت المراجع التي أبحث عنها. ففي الليلة الماضية أصابني الأرق، تقلّبتُ على سريري كثيراً وأنا أفكر بموضوع مناسب، وأخيراً فتحتُ النافذة عَلَّ عاشقة الجبل، تبوح وتلهمني بموضوع.

لم أدرِ كم مكثت أراقب الشارع الذي أسكنه. أحاول التقاط الحكمة الأزلية المبثوثة في الفضاء، والوحي من أقوال البشرية. أتفحص أسماء الشوارع، أشكال المنازل، أنواع الأشجار، حتى سقطت الفكرةُ كمذنب على رأسي.

رائحة الكنافة شدت أنفي نحو راشد، الممسك بصحنين مغمورين بالقطْر كثيف الحلاوة. دفعت ثمن مشترياتي، بعد فتاتين رجّحتُ أنهما طالبتان جامعيتان ناولتا صاحب الكشك ثمن روايتين، الأولى (أحببتك أكثر مما ينبغي)، الثانية (في ديسمبر تنتهي كل الأحلام).

بقينا واقفين في الزقاق، راشد يسدد أهدافه من الكنافة، في مرمى فمه الكبير بحماسة، أما أنا فلم يتحمل فمي، اللُّقَم الصغيرة الساخنة إلا بصعوبة. نضحك كلانا، غير مسيطرين على الجبنة الذائبة المطاطة، ثم نلحقها بكوب من الماء البارد. فطعم القطْر يمسك الحلق، بمقبض من سكّر وحَلا.

صدفة

اشترى راشد بومةً من أحد المحلات، على شكل لعبة توضع بأصابع اليد، لأعتاد شكلها ولا أفزع من بومته الحقيقية، عندما يأتي في إجازته القادمة. ثم عرجنا إلى سوقَيّ البخارية والبلابسة لشراء الإكسسوارات والخواتم الفضية.

لمحت طيف شخص أعرف قامته النحيلة، وبشرته القمحية، وعينيه شديديّ السواد، لكن ما يميّزه ساعداه الطويلان اللذان ينسق بهما الأزهار.

اختفى ولم أعد أراه، ظننت أن وهج الشمس خدعني، فقبل شهر تقريباً شاغب قرصُ الشمس الأرضَ بتوليد عاصفة كونية مكونة من سحابتين متلازمتين، لكن كوكبنا نجا منهما بمعجزة إلهية.

ثمّ صدفةً، اجتمع ثلاثتنا. بنزقٍ تبادل راشد وتميم التحية، وبشزر رمقني تميم.

سألني تميم بعد أن صفعني بعينيه:

– شيرين. أخبرتْني رهف أنك اعتذرت عن جلسة العلاج. لماذا؟

– توعكت «تاتا» وبقيتُ عندها في المساء.

انكمشتْ عضلات وجهه غير مصدّق، لاسعاً بنظراته كيس الكتب في يدي. انصرف بعدها وواصلت أنا وراشد جولتنا.

أخذ راشد ينفخ الهواء من فمه ضجراً بين الحين والآخر، حاولت تغيير الأجواء المشحونة، أخبرته أن دماغي مشغول برحلة الصين، وقلقة بتحضير ورقة بحثية للجامعة. ثرثرت كثيراً لدرجة أنه لم يطق سماعي، فحدجني بنظرة أمقتها، أكيد أصبحتم تعرفونها، من أعلى رأسي حتى حذائي ذي الدعامة.

فجأة أشاح بيده فوق رأسي يحاول إبعاد دبور يحوم فوقي، فخفضته ذعراً.

قال بعد طول تفكير ناظراً نحوي من أسفل كتفه العريضة:

- شيرين، أنت تحسنين الظن بالناس كثيراً. لن ينفعك هذا الشيء. كوني على حذر. فليس الجميع يملك قلباً صادقاً كقلبك الطفولي.

- من تقصد بهذا الموشح الطويل؟!

-لا أحد.

ينتقد راشد طفولتي التي أستحضرها وأحاول إبقاءها، فالطفولة هي الفطرة الخالية، من الهوى والعيوب التي تشوه الفكر، نحتاجها لنرى

الأشـياء ونفهمهـا كـما هـي، مـن دون اضـطرار للـدخول في النوايـا والمقاصد، فهي تجعل أرواحنا أصغر لا تشـيخ.

أكمل راشد مشترياته من شارع الفرزدق في جبل اللويبدة. لمحت تمـيم مرة أخرىٰ، بالقرب من مكتب الصحيفة التي يتـدرب فيهـا في النهـار، قبل أن يذهب مساءً إلىٰ محل الأزهار.

ما هذه الصدف الغريبة! لكن هذه المرة كان يقف مع فتاة شقراء فارعـة الطول، ترتدي ملابس جميلة وضـيقة تـبرز مفاتنهـا، تتحـرك بابتـذال، تعبث بشعرها ثم بياقة قميصه. إحساس غريـب اعـترىٰ روحـي وأنـا أفرك عينيّ لأتأكد مما أراه.

شعرت بوخزة في يدي تحرضني لأشـدّها مـن شـعرها، أسـحبها عـلىٰ وجههـا السـخيف عـلىٰ إسـفلت الشـارع، تمالكـتُ نفسـي وقـرّرت الاتصال برهف، بعد أن التقطت لهما صورة بهاتفي النقـال مـن غـير أن يلحظاني.

أخبرتها بانفعال:

– رهف، أنا قادمة إليكِ الآن!

الأوركيدا تُشبهك

سيوف الغيظ علا صليلها في صدري، أعصابي تمزقت إرباً إرباً، دخلت منزل رهف ومسحت بقايا دموعي. كالعادة استقبلتني في صدر البيت صورةُ جدها من والدتها بلباسه الشركسي، تلتمع على صدره النياشين والأوسمة، فقد انضمّ إلى سلاح الفرسان في أول قيادة للجيش العربي في إمارة شرق الأردن.

على يسار الصورة صالة الجلوس يفوح منها أريج الشام، بأثاثها الخشبي التقليدي المُصدَّف. والد رهف وتميم هاجر أوائل الأربعينات من سوريا مع أسرته، واستقروا في عمّان للإشراف على تجارتهم بين البلدين. انعطفتُ إلى اليمين حيث غرفة رهف.

بحماسة أعيد حديثي عن الأوركيدا على مسمع رهف المنصتة، وتفسير صديقتي الصينية «لي» لحُلمي بأنه الحاجة للبحث عن الحب والرومانسية.

فجأة قطع تميم الواقف عند الباب كلامي قائلاً:

- شيرين، بحسب ما قرأته عن المعتقدات الصينية، معنى الحلم بالأوركيدا هو الحاجة للحفاظ على الحب والرومانسية، وليس البحث عنهما.

- لكن!

- يبدو أنك لم تدركي الحقيقة، لانشغال ذهنك بأشياء أخرى.
- هل أنت متأكد؟
- أكيد، أثرتِ فضولي بزهرتك، فبحثتُ عنها. على كل حال الأوركيدا تشبهك كثيراً أو..

سكت برهة ثم واصل:

- أنتِ تشبهينها.
- أشبهها؟! كيف؟
- تذكّري القاعدة الذهبية التي أخبرتك بها، عندما جئتِ لشراء الأوركيدا.

أعتصر ذاكرتي الشائخة. تمتمت: القاعدة الذهبية؟

وضع يديه في جيب بنطاله قائلاً:

- عندما تذهبين إلى المكتبة، اقرئي رواية (الوشاح الأبيض) للكاتب محمد عبد الحليم عبد الله، إلا إذا أصبحت تفضليّن رأي أحد غيري!
- تميم، أتمنى أن تقرأ رواية (حذار من الشفقة) لستيفان زيفايج.

.

.

تراشقنا بالروايات، وكلٌّ منا يفهم المضمون الخفيَّ لها!

عائشة الباعونية

يا لقلبي الساذج!

عدت للبيت دون أن أسأل رهف عن تلك الفتاة. مشاعر حب متضاربة، وأعراض غيرة كاذبة اعترتني. هل أجد تفسيراً لحالتي، المشوشة والعصية عن التصنيف، في قاموس العلّامة مرتضى الزبيدي الذي يحمل اسمه أحد شوارع اللويبدة.

أيّ قاموس للمفردات العربية والأجنبية، بوسعه أن يورد ما يقارب ثلاث دزينات، من المفردات المرادفة لكلمة الحب؟ بين بعض تلك المفردات فارق بسيط، وبعضها الآخر له معان متباعدة. مثلاً الولع غير الحب الأعمى. الميل نحو شيء ما غير الشهوة. التحيز والمحاباة، قد تنتج، أو لا تنتج عن الشغف والتعلق المفرط. والجذل المقترن بحالة الحب يكون أكبر من محض موضوع باعث على النشوة في حياة الشخص.

هل استطاع الفلاسفة أن يتفقوا على تعريف واحد للحبّ؟! ألم يكتب في الحب كلٌّ من أفلاطون، وأرسطو، والقديس أوغسطين، وفولتير،

وهيجل، وشوبنهور، ونيتشه، وسارتر، وجبرييل مارسل وغيرهم، وكانت أحاديثهم متعارضة عنه؟!

نفضت أفكاري، وأخذت ألخّص بعض الفقرات من المراجع، التي اشتريتها مع راشد من وسط البلد عن الأديبة عائشة الباعونية.

في الصفحة الأولى كتبت:

«عائشة بنت القاضي يوسف بن أحمد بن ناصر بن خليفة الباعونية، الدمشقية، وكنيتها أم عبد الوهاب. تُنسب إلى قرية (باعون) المستلقية على سفوح جبال عجلون، شمال الأردن. عاش بها جدها ناصر، كان يعمل بها حائكاً للثياب ثم تاجراً، ترك القرية واستقر في مدينة الناصرة بشمالي فلسطين. وقد سميت باعون على اسم راهبة اسمها باعونة أقامت في دير هناك، فلما أزيل الدير وبُنيت القرية مكانه عُرفت به».

وعلى الصفحة التالية:

«ولدت في الصالحية أحد أحياء دمشق في القرن 9 للهجرة، عاشت وتوفيت في دمشق، حفظت القرآن وعمرها 8 سنوات، وتابعت تحصيلها العلمي فاطّلعت على كتب الفقه واللغة العربية، تعلمت على أشهر علماء دمشق ومشايخها، فأخذت عنهم النحو والفقه والعروض، تبوأت مكانة رفيعة في العصر المملوكي في عهد سلطان المماليك قانصوه الغوري».

انطلق صراخ تبعه ألفاظ نابية. قفزت نحو النافذة، وضحكتُ كثيراً. أحفاد جارنا يعبثون بتلفاز الحديقة ليشاهدوا الرسوم المتحركة أو الوحوش المتحركة، فلا عجب من قساوة ملامح الأطفال اليوم وطول ألسنتهم! قرّرت أن أُكمل القراءة والكتابة، في يوم لاحق. رفعت الأغراض المتراكمة بجانب الحقيبة ووضعتها داخلها.

مع الكتابة أشعر بالشفاء، لأنها فعل إنساني عميق مستمَدٌّ من العلم والشغف بالحقيقة. نحن نكتب لأنفسنا، ولكن عندما تتشكل الكلمة لا تعود ملكنا، ولا ندري إلى أين تمضي، وحاجتي للكتابة تأتي بعد القراءة المتواصلة.

نستعيد بالقراءة كلمات المؤلف وكأننا نستمع له الآن، تؤدي القراءة أعظم فعل في الحياة، وتساعدنا على التناغم والانسجام، فإذا انقطع التناغم بين الجسد والصوت، تعرَّضَ الإنسان للقلق.

الأوركيدا تحدِّق بي في ظلمة الغرفة، تبدو شاحبة عند أطرافها، ما إن لمستُ إحدى الزهرات حتى وقعت الفاجعة.

سقطت زهرة!

اتصلت بتميم والخوف يعتصر حلقي:

– الأوركيدا يا تميم، الأوركيدا.

– ما بها؟

- سقطت زهرة من الساق. ماذا أفعل؟

-لا بأس، أحضريها في أي وقت. لا شيء يدعو للفزع.

- شكراً.

- مم.. شيرين، تصبحين على خير.

تخلخلت جملته الأخيرة على حبال صوت عاطفته المرتجّة فبدت مشوشة بأنفاسه.

بعد أن أغلقت الهاتف أدركت أن الوقت تجاوز منتصف الليل.

هل أهملتُ الأوركيدا فذبلتْ زهراتها؟!

ليلة العشاء الأخير

بعد دوام الجامعة في اليوم التالي، بقيت في غرفتي مبهورة الأنفاس، مع نهاية رواية نادية للأديب يوسف السباعي، ممدّدة على سريري ألتحف الغطاء، أتتبع بشغفٍ الطبيبَ العاشق يعدو ما بين الأنهار وجبال الألب، للوصول إلى نادية في الوقت المناسب، يتحمل الأذى وحَظْر الطيران من مصر إلى فرنسا في تلك الفترة الحساسة، في تاريخ مصر والوطن العربي.

تباً! كم كان جميلاً ذلك الحب.

وكم كانت الرواية قصيرة.

انزلقت إلى مكتبتي أسفل السرير، أتفقد كتب أنبياء الحب: طاغور.. غاندي.. جبران خليل جبران.. تولستوى.. بلزاك.

كتب متكدسة، تغنّى فيها هوميروس بحب باريس لهيلينا في الإلياذة، ودانتي بحب بياترس، وشكسبير بحب روميو لجوليت، وتولستوي بحب أندرو لنتاشا.

كما إن القصاصين والروائيين كثيراً ما قرنوا الحب بموضوعات مختلفة: «الحب والحرب»، «الحب والمال»، «الحب والخطيئة» و«الحب والموت».

الكتب المتداولة بين يدي القراء في الشرق والغرب، لا تكاد تدور إلا حول أقاصيص الحب. فالصحف والمجلات والأفلام في كل مكان، لا حديث لها سواه وسوى مشكلاته، حتى كتّاب كلمات الأغاني أشبعونا ثرثرة عنه!

وليس من باب الصدفة، أن تكون الأحداث، التي استأثرت على انتباه الجمهور في جميع أنحاء العالم، أحداثاً عاطفية: قصة زواج شاه إيران، قصة خطبة الأمير الياباني آخيتو لفتاة من عامة الشعب بادلها حباً بحب، قصة حب الأميرة ديانا ودودي الفايد.

والحبُّ ليس حكراً على حشود الشعراء والروائيين والفلاسفة، فهو حاضر في الكتب المقدسة التي تروي تاريخ الرسل والقدّيسين. حتى سجلات التاريخ تحدثنا عن التضحيات الكبرى التي أقدم عليها البشر في سبيل حبهم، بدافع من عواطفهم المشتعلة وانفعالاتهم المتأججة.

ينتابني شعور بالوحدة ورغبة بالبكاء كلما انتهيت من قراءة رواية. خلدت للنوم بعدها لساعات، غبتُ في سبات عميق بسبب تأثير الأدوية التي أتجرعها.

***

في المساء ذهبت إلى منزل الخال مصطفى، لوداع راشد المنطلق مع ساعات الفجر الأولى إلى لندن. اجتمعنا حول المائدة العامرة بالخيرات وأطايب المأكولات. راشد يملأ صحني بجنون عندما أنحني باتجاه

«تاتا»، لأضع اللقمة في فمها. أرجوه أن يكفّ، لكنه يصر على ذلك. أفتقد كثيراً الجو الأسري، واجتماع الأحبة الذين غابوا.

كان الجو بارداً نوعاً ما، فأشعل راشد الموقد بعد العشاء. جلسنا متكئين على الوسائد القطنية، الموزّعة على الجاعد الصوفي الكبير، بالقرب من النار. تمطط راشد بجسده وشخر بتثاؤب عميق كأسد الغابة، لم أتمالك نفسي، فضحكت عليه بملء حواسي. نجلس في مساحة الأمان بحرية مطلقة، مع الأشخاص الذين ترتاح الروح معهم، فنبدو بصورة بدائية محببة!

ساعد الخال مصطفى «تاتا» على النوم في سريرها، فهي لا تحب السهر، فيما انشغلت زوجته بترتيب حقائب السفر، وحشوها بالمونة التقليدية من زعتر، وجبنة بيضاء نابلسية، وفطائر وزيتون.

أخرج راشد قرصاً مدمجاً من كيس صغير ووضعه بين يدي:

- ما هذا؟

- فيلم أجنبي. اسمه (adaptation)، يمزج بين الحقيقة والخيال. مقتبس من رواية (سارق الأوركيدا) للكاتبة سوزان أورليان.

- هل شاهدته؟

- لا. وجدته بالصدفة في محل للأقراص، فأحببت أن أشتريه لك.

- سلمت يداك يا راشد.

كلما زارنا راشد خلال إجازته السنوية، نتسترجع الذكريات الجميلة، بالتجول بين الصور في ألبومه الخاص. يعلّق على تسريحة شعري، وابتسامتي الخجولة أمام عدسة الكاميرا. وكلما حاولت أن أسخر من وجهه الذي يشبه وجوه الفتيات، ردّ عليّ بتعليقات تخرسني.

أزاح خصلة من شعري المتهدل بأصابعه وشبَكَها خلف أذني، فرفعتُ وجهي ببطء نحوه ليتماسّ مع وجهه. قال بهمس:

– عيناك كأسٌ من عسلٍ مصفّى. وجبينك صفحةُ لجينٍ نقيّ.

وكزته بكتفه لأزيحه. قلت خجلةً:

– هل تهذي؟ أم إن قريحتك تتفتق عن شعر منسي؟!

زفر آهةً طويلة واعتدل في جلسته.

انسلّت فجأة صورةٌ من زمن خطوبتي، نظرت إليه أستفسر عن سبب وجودها. بسرعة ألقيتُها في الموقد لتستعر. شعلة الخشب المحترق تضيء جانباً من وجهينا الصامتين. خبا وهج النار، فأخذ راشد يلقم فمها لتشتعل من جديد، طالبين الدفء من جوفها الملتهب.

طق طق، فرقعة الخشب في النار، قُلت:

– راشد. عندي فكرة.

لعبنا بالخشب المقطَّع قرب الموقد. بدأ راشد، أولاً يستدعي في باله شخصاً يكرهه أو يزعجه ثم يرمي الخشبة كإشارة إلى أنه أحرقه وتخلّص من شره. رمى نصف الأخشاب. أشفقت عليه. إذا حضرت والدته

ورأته في هذا الموقف، أتخيل أنها ستلقيه بلحمه وشحمه في النار. لحظَتها خفتُ، فأنا المحرّضة لهذه اللعبة الحمقىٰ!

عندما جاء دوري، رتبت الخشبات الصغيرة بجانب بعضها بعضاً، فكرت ورميت خشبة واحدة كبيرة، لكن روحي لم ترتح.

.

.

الحقدُ جبلٌ بارد لا تذيبه النار.

أشعر بالصقيع داخلي.

متى تعود؟

قبل أن نخرج، وضع راشد في حقيبته لوحة رسمْتُها للأوركيدا بقلم الفحم خصيصاً له، بعد تأملٍ طويل لقلب الزهرة الذي يشبه رأس طائر. بقيت والدته مع «تاتا» في البيت، وتوجهنا إلى المطار.

هواء يرشف من كأس الفجر البلوري رشفاً، يطلقه بارداً، لا ينضب منه سحر وجنون. أحاول إغلاق معطفي بإحكام قبل أن تتسلل تلك النسمات المجنونة. أمسك بشعري المتطاير وأركب السيارة.

الليل قطعة سوداء كعباءة أبي الشتوية، نور مصابيح الشارع سكّين يمزّق سواد الليل، ويحيلها قطعاً صغيرة تتناثر بعيداً بعيداً، وتختبئ في سكون المدينة، لتشقّ المسافة بين الجسور والأنفاق.

يزمجر محرك السيارة بهدير مرتفع، يعلو على ثرثراتنا الأخيرة التي نختلقها قسراً لنخفف من وطأة الفراق.

كلما اقتربنا من المطار زادت الظلمة وتوارت مظاهر المدينة، سكّين الضوء خفَّتْ حدةُ نصلها، لتعود القطع الممزقة من ليلنا ونتّجمع من جديد، يحيكها صوتُ الطائرات الهابطة والصاعدة على المدرج، أنوار المطار عينان بارزتان من تحت نقاب السفر، تحدّقان بفراق ولوعة، فبرد لندن في عروقي والضباب يملأ عيني.

تحرك ثلاثتنا ببطء مفتعل، لنؤخر لحظة الوداع. فالأرواح معلقة، وعيناي عششتا فوق أنف راشد قبل أن يغيب مع أمواج المسافرين.
سألته برجاء في آخر لحظة، بعد أن تحرّرت من يد السكون المطبقة على حروفي:

- سأفتقدك. متى تُنهي غُربتك وتعود؟
- شيري، الاغتراب دافعي للتعلم، والتفوق، وإثبات الذات.
- تفاجئني كثيراً بنظرتك الفلسفية للأمور، رغم الطرافة التي تسيطر على تصرفاتك. أنت متناقض يا راشد.
- لا تقسي عليّ. سأشتاقُ لكِ دوماً يا أعذب أنثى!

قالها بعطف ورقّة لن أنساهما.
ظلت كلمات راشد عالقة بي. فالاغتراب ضرورة ومؤشر يرى فيه راشد مستقبله، ويرشده نحو الأفضل. يأنس في نفسه طموحاً للعلم والريادة، فلا يُركن إلى ما يشغل عامة الناس.
أسند رأسي إلى كتف نافذة السيارة، الكون يخلع عباءته ويتدثر بوشاح أبيض شفاف كوشاح «تاتا». يتدرج النور المنبلج بالانتشار، يلتفّ حول محيط الأرض ناشراً الضياء، معلناً بداية يوم جديد منحه الله لنا لنعيشه بالأمل في الحياة.

الوسن أطبق جفني، فسقط جسدي على أريكة غرفتي فور أن وصلت للبيت، وغططتُ في نوم عميق. بعد ساعات، جاءت خالتي هيام تسألني بلهفة عن سبب غيابي عن المنزل. بدا وجهها فاتراً وعيناها حائرتين. أؤكد لها إنني أبلغتها عن سفر راشد فجراً. لم تقتنع بما قلته ولوت شفتيها للأسفل بتعجب.

قلت في نفسي: يا ليتك تنسين أحزانك يا خالتي كما تنسين ما أُخبرك به!

بقيت يوم الجمعة أتسكع بالبيجامة في أنحاء البيت، ما بين التلفاز والمطبخ والنافذة، وحقيبتي في زاوية الغرفة تنتظرني، وأوراقي امتلأت بكلمات البحث الذي سأقدمه عن عائشة الباعونية، كورقة عمل، كما طلب مني رئيس القسم في الجامعة.

كتبت على صفحتي على الفيسبوك بعد أن جالت أحداث اليوم السابق في ذاكرتي: (يقتلني هدوئك.. وصمتك لكِ أنحني يا أعذب أنثى).

شجرة القمر

خوفي على الأوركيدا جعلني أقرّر نقلها مساء السبت إلى محل تميم. عبثت بها طوال النهار. تصرفت بحماقة عندما حاولت إلصاق الزهرة التي سقطت.

سلكت معها شارعاً قليل الضوضاء عند أطراف جبل اللويبدة، خرجت بتروٍّ نحو شارع خارجة الأشجعي نزولاً نحو الجنوب بخط مستقيم، تخطيت شارع أحمد شوقي للشارع الرئيسي التالي المطلّ على جبل عمان.

هكذا يتجلى ليل الحكمة

الليل ساكن، مطوَّق بالنبوءات

ضياءٌ لطيف أنار قبة الجبل، قبة سماء واحدة لكل الكون قبة سماء واحدة، للفرح والشقاء، للذكرى والنسيان.

هنا الهواء أصفى وأبرد، تقدمتُ بخطى أريد أن تطول، أمعن النظر لأحفظ آخر طيف لها، أحدّثها عن توقي للسفر، رفعت رأسي للأعلى، فكنتُ وجهاً لوجه معه من دون سابق إنذار.

وجهٌ حجريٌّ مضيء

وجهٌ قمريٌّ، يخرج من رحم سيدة جبل اللويبدة، عاشقة نبتت من زمن الاعتدال بين الحلم والحرية. تجلس في السماء، كل عام، في الوقت نفسه، تلد عاشقةُ الجبل قمرَ الحصادين وتنثر حلْيَها ولآلئها على صدر الفضاء، تغدق علينا كنوزها لتنير مسارَ الحلم.

بين شجرة وبيت فسحةٌ مستطيلة وخلاء، وقفت فيها لأنهل من أشعة القمر الفضية، مأخوذة بالضوء، رغم الليل المتدثر بردائه المخمليّ القاتم.

أتعافى من جراحي وأُحيّي أوركيدتي التي نالها الأرق.

هذا الشارع سأغير اسمه، إلى شارع حبيبتي أوركيدا.

بدل أن أمشي للأمام، تبعت القمر نزولاً في الشارع السفلي، بمسار شكّل مثلثاً، لحظتها وجدتُ القمر عالقاً بأغصان شجرة.

الشجرةُ مثلثٌ مقلوب.

شجرة القمر؟

رعاها المساء، غذت شذاها شفاهُ القمر

كلما اقتربتُ من الشجرة، تدلّى من كل غصنٍ طريّ، قمرٌ جديد صغير كقطعة من شمع وسكّر.

جلستُ على الأرض ووضعت الأوركيدا إلى جانبي، أراقبُ الوجود. وهذا الشارع أيضاً، سأعطيه اسماً يروق لي، شارع الشاعرة نازك الملائكة.

الزمانُ والمكانُ وعاءٌ لأحلامكم.

الحُلمُ غذاءُ السيدة عاشقةِ الجبل، الحريةُ رفيفُ ثوبها.

أخرجت الأوركيدا من الإناء، طلبت منها أن تحملني على أوراقها المجنّحة لأقرأ الأحلام في كل بيت، وأبذر الأمل بما يكفي لإنضاجها، فيعلو نشيد الفعل من الخراب.

الوحيد، من لا حُلم له، فغطّاه الصدأ.

حسناً سأزرعك هنا.

فما يوجد في الحلم يوجد على الأرض، والإنسان نباتُ حلمه.

نبشت الأرض بأصابع متوترة، وزرعت أوركيدتي لتمتزج بالتراب، علَّ مطراً في آخر أيلول يروي حلمي، مع اكتمال استدارة القمر.

الدائرةُ انتظارٌ.

أريد ذلك الخيط الضوئي لأخترق وحشة الكون، المدن الحجر والزهر، لأصاب برعشة قلب عاشق. رفعت الإناء لأملأه من سنا القمر وأسكبه على نفسي، أغسلها من أدران الدنيا العالقة بروحي.

لم أعرف كم ساعة بكيت، وكم من دمع عيني ذرفت، تخيلت الأوركيدا تذوب، تمتصها جبال عمان السبعة المحيطة بجبل اللويبدة، لمسة حياة تبدل المنازل بأحجارها المربعة إلى منازل من نور، ولا تحيا إلا بالحب.

المربع واقع.

الحكمةُ جنون.

التمعَ صوتٌ سماويّ منادياً من عليائه:

- شيرين، شيرين، شيرين..

- أبي؟

- شيرين، عودي للبيت الآن.

- أبي، أين أنت؟

جاء أبي في الخيال البعيد، ينبهني من شرودي السابح بين الحلم واليقظة، أعدت الأوركيدا إلى الإناء، يدٌ خفية جذبتني بقوة نحو سيارة خُيِّل إليّ أن بجعتين تقودانها، وانطلقنا.

ظل هاتفي النقال يرن بإلحاح، تميم يحاول التواصل معي، لكني لم أستطع التحدث إليه، وأرسلت الأوركيدا له في يوم آخر.

طريقٌ من شوك

توالت الأسابيع بطيئة مملّة بعد سفر راشد. وجوده أضفى نكهة من السعادة على الأيام الراكدة، رغم لسانه السليط. ألوك الوقت القاسي بأسنان الصبر المثلّمة. أنتظر القبول من جامعة بكين.

بقي التفاؤل يملأ إناء روحي، أطبق مبدأ قانون الجذب بحماسة منقطع النظير، لكن وصول قبول زميلتي غادة فقط، كسر حلمي لتنزف المفاجأة من عيني.

كمومياء صماء التصقتُ بنافذة الغرفة، غارقة في أعماق حزن كسواد ليل لا قمر ينير سماءه، تَواصلَ سهري أربعاً وعشرين ساعة متتالية غير مصدّقة، أدخّن سجائر حظّي المحترق بين شفاه الأسئلة القلقة.

لم أستطع النوم في قبر السرير، أغطيتي اشتعلت بنيران الوحشة، روحي خيولٌ برية تعدو في كل الاتجاهات على أرضٍ خالية من أمل، تدق حوافرها الحادة في جسدي فتمزقني. أجول في الغرفة أنزف غصّتي كفريسة جريحة.

خيوط اليأس حاكت قميص الخيبات، لبسته وتسربلت بالحزن ليالي طويلة وحيدة، قابعةً في زوايا الغرفة. البكاء تحول داخلي إلى كتلة

حرارية ثم إلى نشيج عالٍ مَزّقني لأسقط في بئر القنوط. أُصارع أمراً مفجعاً وكارثياً.

اتصلتُ برهف فزعةً لتنقذني من نفسي، فما عدتُ أستطيع السيطرة عليها، ولا أعرف كيف ألجمها كي تهدأ. أخذتْ ترتب الغرفة وتطلب المساعدة مني، فكل قطعة مني كانت ملقاة بإهمال في إحدى الزوايا. ثم جلسنا نحتسي الشاي بهدوء.

قالت رهف بعد أن رسمت ظل ابتسامة على وجهها:

– شيرين، هل تبحثين عن نصفك الآخر، عمّن يحقق أحلامك؟

بقيتُ صامتة.

– شيرين، أنتِ فتاة رومانسية جداً، ومغرمة بفكرة الحب بحد ذاتها.

– رهف، ماذا تقصدين؟

– الرومانسية قد تكون عدوة للحب أحياناً. أرجوك أزيلي عن عينيك غشاوة المثالية الخيالية، عن حب ينتظرك في أقصى الشرق ليعوِّضك عن خسارتك العاطفية السابقة. لا تتوقعي أن يغير الحب حياتك تغييراً جذرياً، الحب ليس جواباً لكل معضلات الحياة، وليس وحده الذي يجلب السعادة.

أمسكتْ رهف خيط أفكاري الشارد، وحضنتني لأبكي بحرقة تائه.

نمتُ تلك الليلة ورهف تهدهدني، داخلي آلة تعذيب تكويني، معدتي تتقلص وقلبي يتلوىٰ، ورأسي كخلية النحل يملؤه الطنين.
ترىٰ رهف الحب موضوعاً عادياً، أدنىٰ من أن يكون أمراً كونياً. في اعتقادها أن السعادة نابعة من دواخلنا، وحتىٰ الانزلاق في الحب لا يأتي بمحض إرادتنا.

***

زوابع حلم جديد زارتني في تلك الليلة وعصفت أعاصيرها في رأسي المتصدّع.
(أسير على طريق من شوك مُدَبَّب، يدمي قدمَيّ الحافيتين، أتقدم بلا هوادة، الألم ينضح من عيني، أريد أن أصرخ لكن لا أستطيع.
أصل إلى بئر متهالك، أجُرّ الحبل المصلوب على حافته بصعوبة، صدى الصوت لا يعود، الدلو فارغ، أرميه مرة تلوى الأخرى لكن بلا أمل.
مع آخر نَفَسٍ من أنفاسي المقتولة، خرج الدلو مملوءاً بأزهار الأوركيدا الندية).

***

ألوي الأيام وأحوّلها لأداة حادة، أقطع بها انتظاري. على نافذة الصبر أتوق لقافلةٍ تَعْبُرُ صحراء ظنوني، ترمي بقميص يوسف على بصري، أفك أزرار يأسي، فتنكشف بصيرتي وأعود إلى رشدي.

خرجت من جحر الأسى نحو شارع ابن حزم الأندلسي لأتناسى حزني. صبغت وجهي وجفنيّ بمساحيق تجميل براقة. رسمت حول عينيّ خطوطاً حادة بقلم الكحل الأسود، وارتديت قميصاً برتقالياً فاقعاً. أتغلب على همّي بكذبة من الألوان لتغطّي مشاعري الضحلة.

كانت «تاتا» تجلس قرب قفص الحَمَام، عندما وصلت لمنزلها، اقتربت منها كحمامة ساكنة، سألتُها بفضول وعفوية:

- هل تزوجتِ صالح؟

برق الدمع ساخناً، قالت:

- لا *يا ستي ما اتزوّجتوش، يا كشيلي*[1] *على شبابو إللي راح.*

أخبرتني أن صالح تقدم لخطبتها، لكنها رفضت الارتباط به قبل عودة أبيها من السفر، ولم تكتمل سعادتها لأنه استُشهد بطلقة غدر من اليهود، انتحبت وامتنعت عن الأكل والشرب حتى ذبل جسدها، فلا

(1) يا كشيلي: يا خسارة.

عاد أبوها ولا ظفرت بصالح، تجرعت مرارة الفراق، وأصرت أمها على تزويجها رغم رفضها.

اختنقنا بالذكرى القديمة، الذكرى حبلٌ غليظ يلتفّ حول عنق الأيام، فآثرت السكوت كي لا تنتكس صحتها، وخرجت أمشي في شوارع جبل اللويبدة.

***

وصلت لدارة الفنون. قادتني الدرجات الحجرية بين مبانيها إلى ساحة تنتصب فيها آثار معبد قديم. جلست على الحجارة المنسية في تاريخ المكان والزمان، كأنني في رواق الفيلسوف اليوناني زينون. أنصتُّ خاشعة لمفردات الحب الغامضة، عبر الأزمنة، وفي الكتب التي قرأتها:

«في المفردات الإغريقية، كلمة فيليا محرضة على الصداقة الوثقى، أما ستورغ فتشير إلى الاهتمام المفرط بجميع شؤون المحبوب، وهو تماماً ما نشعر به نحو أفراد عائلتنا أو الأصدقاء المقربين، بينما تُختزل معاني البر والإحسان بأغابي.

كتب بولس الرسول إلى أهل مدينة كورنثوس اليونانية: (المحبة تتأنّى، المحبة تترفّق، المحبة لا تَحسد ولا تتباهى. لا تتفاخر ولا تسيء

لكرامات الآخرين. لا تطلب شيئاً لنفسها ولا تحتفظ بسجلٍّ لأخطاء أحد، هي تحمي الآخرين وتثق بهم وتحفظ العهود).

أمّا فرط العشق والهوى، وهو سمة إنسانية خالدة، فقد ألهم الكثير من الأعمال العظيمة في الشعر والموسيقى والفن عبر الأزمنة، عبّر عنها الإغريقي بمفردة أيروس.

أحجيات الحب

في مساءٍ خريفيّ شاحب، ذهبتُ إلى بيت رهف. تمنيت ألّا أرى تميم، لأنه سيبدأ التحقيق معي، طارحاً أسئلة كثيرة. دراسة الصحافة والإعلام أثّرت على أسلوبه في التواصل الاجتماعي.

نهضتُ لأخرج بعدما حملت كتبي وأغراضي، لحظَتها سقط جواز سفري على الأرض. كان تميم يقف عند الباب وفي يده إناء الأوركيدا، متقاطعاً وجهه مع زهراتها.

التقط الجواز بدهشة واستفهامٌ كبير على وجهه.

قلت:

- سأسافر الأسبوع القادم.

- إلى أين؟

- إلى الصين.

- الصين! لماذا الصين؟

- ضمن مشروع التبادل الثقافي بين جامعتنا وجامعة بكين.

شدّ على الجواز بيده:

- ولماذا لم تخبريني؟

شعرت أنني أواجه ضوءاً شديداً لا أحتمله من أسئلته. غادرتُ ظلي المهزوز وأجبته:

- بصراحة لم أكن متأكدة من سفري، تأخر القبول وظننت أن طلبي رُفض. اليوم أكملت إجراءات تأشيرة الدخول.

- وما رأيُ خالتك؟

- أنت تعلم أنها سلبية. لا أستطيع تمييز رضاها من عدمه.

قلت لنفسي: لن أسمح لنظرته القاسية قساوة المعدن المدبَّب، أن تقف عائقاً أمام سفري. تمالكت شجاعتي، وللمرة الأولى أخاطبه بثقة وبلا تردد:

- ما المشكلة في ذلك؟! سأسافر في طلب العلم وزيادة تحصيلي اللغوي والثقافي، قبل أسابيع كتبت بحثاً عن الأديبة عائشة الباعونية، امرأة لبيبة وعالمة جليلة وصوفية ذات دين وصلاح، لُقّبت بفاضلة الزمان.

بلعت ريقي وواصلت:

- سافرت الباعونية إلى القاهرة في سن صغيرة لطلب العلم، ونالت من العلوم الدينية والكونية حظاً وفيراً. تعلّمت علم النحو والعروض، وأجيزت في الإفتاء والتدريس. لها مؤلفات في الشعر والنثر، وباع طويل في فقه المذاهب الأربعة.

نظر إلى حذائي بازدراء، ثم سألني بعد أن سقطتْ ضحكته المستفزة:

– مَن سيعتني بك عندما تنتابك الآلام في الصين؟ مَن؟ أخبريني؟
وبجنون رمى إناء الزهرة بقوة على الأرض ليتهشّم إلى بلورات جارحة، تمزَّقَ عنق الأوركيدا، انحنيت أجمع ما تبقّى من أشلائها المتناثرة، وأجهشت بالبكاء عليها.
لحظتها ارتفعتْ حرارة جسمي، تجمعت في أذنيّ لتغدو كصاجٍ ساخنٍ ملتهب، الهسيس أصبح كصرير باب قديم صَدِئ.
صرختْ رهف:
– تميم.
بعد أن هدأت أعصابي، تقدم تميم ووجهه يوحي بالندم على قسوته الحادة، سألني بنبرة منخفضة لم أعهدها منه:
– هل تمانعين في أن أرافقك إلى المنزل؟
وافقتُ بإيماءة مكسورة من رأسي.
خرجنا، لكن لم نتحدث على الإطلاق، ساد بيننا سكون مجنّح بألف خاطرة وخاطرة، حتى وصلنا المنزل.
هل اختفتْ أصواتنا؟ هل ابتلع الصمتُ السرمديُّ الكونَ؟!

.

.

الكلام يريحُ أحياناً، والصمت عقابٌ ضمنيّ.

***

أشعر بالأشباح تسكن بيت خالتي.

ككتلة هلامية لزجة، بقيت لأيام حبيسة المنزل بإرادتي، أنام، آكل، أتصفح الإنترنت، أثرثر على الفيسبوك.

تواصلت بصعوبة مع صديقتي الصينية «لي»، بسبب انشغالها بمهرجان منتصف الخريف، والمعروف أيضاً باسم مهرجان القمر. وهو يقام في التاريخ المقابل للاعتدال الخريفي، في التقويم الشمسي. فيه يحتفل المزارعون بنهاية موسم الحصاد لفصل الصيف. وقد صودف عندهم في الثلاثين من أيلول.

حدثتني «لي» عن طقوسهم في هذا العيد:

- تجتمع أسرتي والأصدقاء لأكل كعكة القمر تحت ضوئه. حيث يكون القمر مستديراً ومكتملاً. نضيء المصابيح والفوانيس، نغرس أشجار منتصف الخريف، نحرق البخور، نضع قشور فاكهة البوملي على الرأس، نجمع أوراق الهندباء ونوزعها بالتساوي بين أفراد الأسرة، ولا ننسى رقصة تنين النار.

حمدت الله على سلامة كوكبنا، من الكارثة الكونية التي كادت تحدث في شهر تموز الماضي، فبإمكان المجال المغناطيسي المتولّد في سحابة العاصفة الشمسية، أن يوقف عمل الأجهزة الكهربائية والاتصالات على سطح الأرض، ونرجع إلى الوراء قروناً من الزمان. وقتها لا أعلم ما سأفعل في ظل الوحدة والملل، من دون الإنترنت.

لم يكن هناك من أمر كارثي سوى، تقلبات الحب وتلوناته العصية على إدراكي، فعلماء الدماغ قطعوا على أنفسهم وعداً بجلاء كل خفايا الحب وطلاسمه، وإزاحة القناع عن أحجياته، بإرجاعها إلى ما تفرزه الغدد من هرمونات. ربما يتمكّنون من تصنيع حبة دواء، أو جرعة يمكنها تمتين رابطة الحب أو تحريرنا من ربقة سحره الطاغي.

طلبٌ ووعد

خيط رقيق يجمع حوله تسعاً وتسعين حبة بلورية خضـــراء، كويكبـات تدور برشاقة في مجرة المعصم الدقيق، تتساقط فوق بعضها بعضـاً تحـت تأثير جاذبية السبابة والإبهام، رنـة عذبـة مـن مسـبحة «تاتـا» المباركـة، استقبلتني لحظةَ دخلتُ إلى غرفتها.

«تاتا» تصنع مسبحتها من نبـات اسـمه المسـبحة أيضـاً. تنمـو الحبّـات الرخامية بين وريقـات صـغيرة، لشـتلةٍ زرعَتْهـا في حـديقتها الخاصـة، جاءتها هدية من إحدى قريباتها من لبنان. تشكّ الحبات الناضجة، بعـد أن تيبّست بالإبرة والخيط.

رأسـي في حجرها، تمسّد على شَعري، أحـس أننـي قطّـة مدلَّلـة، تـنعم بالرضا والطمأنينة.

رن هاتفي المحمول. جاء صوت من بعيد:

- مرحبا شـيري.
- أهلاً راشـد. الحمـد لله عـلى سـلامتك، أيـن أنـت؟ حاولـت أن أحادثك على الفيسبوك وعلى رقمك الخاص.
- أنا بخير. انشغلت في العمل. أخبريني؛ هل حصلتِ على القبـول من الجامعة؟

- نعم، سأسافر غداً.
- وكيف زهرتك؟
- ليست بخير. وضعتُها عند تميم ليعتني بها. هـل تعلـم؟ أخبرتنـي صديقتي الصـينية «لي» أن جدتها تمتلك حديقة كبيرة خاصة بزهرة الأوركيدا و...

انطلق صوت «تاتا» حاداً ليقطع حواري:

- *مين رايح يقطف هاي الزهرة. مين؟*

ارتبكتُ من انفعال «تاتا»، وأوقفت الاتصال مع راشد.

قلت لـها:

- حبيبتي، ما خطبك؟

ردت بحزم:

- *مين رايح يقطف هاي الزهرة؟ مين؟*
- حبيبتي. جئت لأودّعك. سأسافر غداً إلى الصـين لحضور حلقـة دراسـية. لن يذهب أحد لقطف الزهرة.
- *أكدّوه عِبّي[1]، جاوبوني، يا ستي ما بحب أتطيّر، بس أنا ما بحبها ما بحبها، ما بحب هاي الزهرة.*

(1) أكدّوه عِبّي: أقدُّ جيوبي.

تفاجأت من انفعالها الحاد. لفتت انتباهي سهام من لَحْظِ عينيها تصوّبها تِباعاً إلى الصندوق الخشبي، بنظرةٍ زجاجية كالصقيع.

خرجتُ بعد أن اطمئنَنْتُ عليها. ظلّ قلبي يرعاها مثل مصباح صغير قرب السرير، وعقلي تطوف فيه الأفكار المنجلية من كل العوالم، لأعرف سبب كُرْهِها للأوركيدا.

***

نمتُ ليلةَ السفر على «كنبة» غرفة الجلوس. كانت كخيطٍ أدقّ من شَعرة. حقيبتي عند باب الشقة، وعلى الكرسي بقيّة أغراضي.

رغبة جامحة تملّكتني لأُودّع شوارع اللويبدة. الأرض مطاطية تحت قدمي. لا أدري كيف وصلت منزل أهلي في شارع محمد إقبال. كالغريب الهائم وقفتُ عند السور. انتحبت عيناي بالدمع أسفاً وحزناً على حسرتي الأولى.

وجهُ المدينة يتهالك، تتساقط الأسوار، تتمزق الأضواء. منزلي مهجور، تحت أغصان شجرة البرتقال، تشخص الشواهد الحجرية بنقشٍ عليه أسماء أهلي الخاشعين في نومهم. لكن لِما انقدتُ نحو تلك الأحداث الماضية؟ أريد أن أذهب لِحُلميُ، لا أن أبكي.

فلنترك الريح تئنّ والموج يصطخب، وتعالي أيتها الخواطر المضطربة والعواطف الملتهبة، عودي إليّ قليلاً، فأنا أرغب في التأمُّل والعزاء.

أتعودين يا ذكرياتي الحزينة؟

يا ليتني أعود طفلةً صغيرة، أنتظر أمام مدخل بيت أهلي سيارةَ ألفان البيضاء، تحمل في جعبتها البوظة، تطلق لحنها المميز، فأجري نحوها لأشتري لي ولأختيّ الصغيرتين.

تلك اللحظات الجميلة غادرتني بلا رجعة، ولم يتبقَّ لي سوىٰ إرثٍ من حزن ووحدة.

أخذتني الخواطر وتأخرتُ علىٰ رهف وتميم، المنتظرين في السيارة. لاحظتُ حركة خَفيةً من جفنَي تميم المتنفخين، تشي بما في داخله من أجنحة عملاقة نائمة.

فور أن وصلنا للمطار، سحبني تميم من يدي، مسترسلاً بآهات قلبه الولهان طالباً مني الزواج. تجمّد الكلام علىٰ شفتيّ، طلبَ أن أجيبه بعد عودتي من الصين، ووعدته بإيماءة خفيفة من رأسي.

***

«عندما نكون بعيدين عن ذوينا ولغتنا وقد اقْتُلِعنا من
دواعمنا، نصبح عندئذ على سطح ذاتنا بِكُلِّيتنا»

ألبير كامو

«وتقول لنفسك: سأرحل
إلى بلادٍ أخرى، إلى بحارٍ أخرى
إلى مدينةٍ أجمل من مدينتي هذه،
من كل جمال في الماضي عرفته
لا أرضَ جديدةٍ يا صديقي هناك
ولا بحرا جديدا، فالمدينة ستتبعك
وفي الشوارع نفسها ستهيم إلى الأبد».

الشاعر اليوناني كافناي

لا مجال للتراجع

بصعوبة انفتح جفناي الثقيلان. رعشةٌ كالكهرباء تسري بجسمي من أثر النوم الطويل على جانب واحد. أغلقتُ عيني مستسلمة للنعاس، وأحلامي يتداخل فيها الواقع مع الذكريات.

شعرت بحيوات عدّة في آن واحد، هل كنتُ نائمة في طائرة امتدت رحلتها تسعَ ساعات متواصلة، من مطار الدوحة إلى مطار بكين، أم لا زالت ممددة على سرير المستشفى، لا أستطيع الاستيقاظ من تأثير المخدر، بعد عملية صعبة، لإخراج الشظايا من جسدي الممزق في حادث قديم؟!

حضنتُ الوسادة الدافئة بين ذراعي، أنادي على «تاتا» وأقبّلها، أتنشّق الحنان من وشاحها، ليمتزج عبيره في رأسي، مع رائحة القهوة الصباحية عند بوابة الجامعة. أستغرق في سبات عميق هاربةً من كآبة خالتي، ليتداخل شخير مكنسة كهربائية مع ضوضاء تلفاز جاري، في جبل اللويبدة.

رموشي ارتعشت فوق عيني الخائفتين من الاصطدام بجدار الحقيقية الأصم، تحاولان الانفراج ببطء. دغدغتْ بصري ذراتٌ، شكلت

خيطاً رفيعاً ممّا يشبه الضوء، انحنى مائلاً على طرف ستارة سميكة تحيط بالنافذة.

أنا في الصين، ولا مجال للتراجع أبداً!

ما أدركته من غرفتي في الفندق، عندما دخلتها أترنح، بعد رحلة طويلة هو شكلُها المستطيل. يتمدد بها سريران متجاوران، وعند أحد الزوايا، ثمّة كرسي ومنضدة صغيرة.

مضى وقت لا أعرف أبعاده الزمنية. فكرتُ في حقيقة الأمر الذي أقدمت عليه. استدرت لأنام على ظهري. سقف الغرفة يهبط ويصعد. شعرت بالدوار والغثيان. ثَبَّتُّ نظري عليه لعلّه يهدأ ويتوقف.

اعتدلتُ جالسة في السرير، لتظهر صورةٌ مضحكة لشعري المنكوش على المرآة، وحقيبة كبيرة بُعثرت محتوياتها، بعد بحث عشوائي عن ملابس النوم.

نمت في وقت متأخر، كنا نحاول الاتصال بالأهل لنطمئنهم بوصولنا. بعدها ألقيت جسدي على السرير، وقذفت ملابسي بفوضوية على الأرض. التعب أضنى جسدي المرتعش، وحبة الدواء غفت أسيرة داخل كفّي ولم أتناولها.

تحدثت غادة أولاً. لم أدرك أنها انتهت، إلا وهي تمدّ الهاتف نحو وجهي هازّةً كتفي لأصحو من شرودي. بصراحة كنت أفكر بمن سأتصل؟! «تاتا»؟

تميم؟
رهف؟
خالتي هيام؟
.
.
- مرحبا رهف.
-أهلاً شيرين. كيف الحال؟
- أنا بخير، آسفة لأنني أتصل في هذه الساعة المتأخرة في الليل بسبب اختلاف التوقيت. أرجو أن تتصلي غداً بـ«تاتا» وخالتي هيام وتطمئنيهما عني. سأحاول مكالمتهما قريباً.
- حاضر. اعتني بنفسك. لا تنسي أن تتناولي الأدوية في مواعيدها.
- بلّغي سلامي لتميم.
- إلى اللقاء.

حككتُ رأسي متعجبة من همهمة مكنسة تقترب كحيوان جائع يبحث عن فريسته. أقنعت نفسي أنه هسيس أذني. التثاؤب شقَّ فمي. نظرت للساعة التي قمتُ بتعديل عقاربها فور وصولنا إلى بكين، بتقديم

التوقيت خمس ساعات. لم أعتد الاستيقاظ من دون رنين المنبه. خالطني شعور يتردد بين العودة للنوم أو الاستيقاظ. دقاتٌ عجلى على باب الغرفة حسمت الأمر.

ساقاي متصلّبتان من طول المكوث في مطار الدوحة لستّ ساعات، بعد وصولنا قادمين من مطار عمّان، تسكّعنا خلالها في محلات السوق الحرة. حشرت قدمي بالحذاء، أجرّ خطواته المخنوقة نحو الباب. الفتاة المختصَّة بخدمة الغرف تقف بأدوات التنظيف مع مكنستها الكهربائية. تَبخَّر النوم، واسيقظت كل حواسي من سباتها، أُخبرها بكلمات صينية، والانفعال ظاهر على وجهي، بعدم رغبتي في تنظيف الغرفة.

أسرعت لأخذ حمّام ماء ساخن، تتصاعد مع أبخرته صورٌ لواقع يعبر قلبي ظلُّه الثقيل. أهرب من حزن قديم إلى وطن جديد. قطرات الماء أصابع تمسح عن جسدي الألم. خيالي ريشة فنان أسطورية، خطّت برشاقة وخفة، صور أماكن نادرة في الصين، أرى فيها الجمال والسعادة، وأصل بيقين الهدى إلى سر الأوركيدا.

الدماء تطوف في عروقي بحيوية ونشاط، نشوة مجنونة تجتاحني، يتجدّد داخلي صوت عاشقة الجبل مع كلّ شهيق.

***

في ذلك الوقت من السنة، تنخفض درجات الحرارة. ويميل الجو إلى البرودة. بمجرد دخولي مع صديقتي غادة إلى قاعة الطعام الكبيرة،

الموجودة في الطابق الأرضي للفندق، بحثت عن كوب ساخن من الشاي ليدفّئ جوفي المتجمّد.

استقبلنا يومَ وصلنا مطرٌ ناعم، والضبابُ الذي يلفُّ أبنيةَ المدينة حالَ دون أن أكتشفها. لم ألحظ سوى جوانب شارع المطار المزروعة بالأشجار دائمة الخضرة، فمدينة بكين سهلية، لا تلال أو جبال فيها.

بينما يدي تعبث بكتيّب عن جامعة بكين، وكزتني غادة تستحثّني على تناول الفطور المكوّن من البيض المسلوق بالشاي الأحمر، وقطعة خبز مطهوّة على البخار، والقليل من الزبدة والمربى. لم آكل بشهية، بسبب شريحة لحم بقر محمّرة تناولتها في وجبة الطائرة، فأربكتْ معدتي.

جامعة بكين هي الجامعة الوطنية الأولى في الصين، تشتهر بعلوّ مستواها الأكاديمي في الآداب والعلوم، تأسست عام 1898، فيها أكبر مكتبة جامعية قي آسيا، حيث تضم 6. 29 مليون نسخة من الكتب.

بعد ساعة اجتمع أعضاء حلقتنا الدراسية، من دول عربية عدة، ضمن برنامج التبادل الثقافي مع الجامعات، بانتظار الحافلة التي ستنقلنا لحفل الاستقبال في جامعة بكين يرافقنا الشابان (شي او دينغ) و(سون)، منسقا البرنامج.

التصقتُ بشبّاك الحافلة طوال الطريق. نطوف بين المباني الحديثة الشاهقة المصقولة، أتأمل أسقف الكرميد المعتَّق الأحمر للمباني القديمة،

منحوتات لأسودٍ تزأر بصمت، مصابيح حمراء دائرية، بوابة بلا سور، سيارات فارهة، فتيات نضرات، عجائز فتيّون بلا كروش متدلّية، يركبون الدرجات الهوائية، سيدة تحيك بيدها أشغال التريكو، وسيارة محمّلة بأعواد البامبو الطويلة الغليظة. أما المشهد الأغرب، فهو شبكة الطرق المتداخلة على شكل طبقات بعضها فوق بعض، للتقليل من الزحام.

كانت صديقتي الصينية «لي» في انتظاري عند مدخل الجامعة، تحمل مظلة من النايلون الأزرق، بيدين بَضّتين صغيرتين. ترقص على وجنتيها غمازتان ساحرتان. وعندما عرفتني رمشتْ بعينيها المخمليّتين. واتجهنا إلى حفل الاستقبال.

***

شعرت بالجوع فور عودتنا من الجامعة، وضعت القليل من الأرز في السُّلطانية المقعَّرة، وحاولت استخدام العصي في تناوله، لكن محاولاتي باءت بالفشل، وتناثرَ الأرز على الأرض!

قالت غادة:

– جميلةٌ تلك الصورة الجماعية التي التقطوها لنا في الجامعة. أعتقد أن مجموعتنا تتكون من عشرة أشخاص، أليس كذلك؟

– نعم.

وتابعتُ وأنا أتثاءب:

– أشعر بالدوار. ما زال جسدي يؤلمني من الرحلة الطويلة.
تمددتْ ابتسامة ساخرة على وجهها تبعتها ضحكة غريبة. سألتُها:
– ما بكِ يا غادة؟
– تذكرتُ ما حدث لك في مطار الدوحة.
– أرجوك، أرجوك لا تُذكّريني كنت أهذي بكابوس الأسلحة الموجودة في الحقائب، وأنا نائمة على كراسي الانتظار في المطار!

اضطراب ساعتي البيولوجية أدخلني في سبات عميق بعد أن تناولنا وجبة الغداء، امتدَّ حتى المساء، لتقتلعني منه غادة، راجيةً أن نخرج للتسوق.
نسمة رقيقة سالت في الأجواء، حفزتنا للخروج مع زميلاتنا من العراق واليمن. ثمة بحيرة صغيرة أمام الفندق، في الصباح تلألأ سطحها مع أشعة الشمس، ليتقاطع مع أكواز أزهار اللوتس البنية الجافة، الطافية على السطح، المتكدسة عند الأطراف. أما في المساء، فقد بدت البحيرة كأنها حفرة سوداء عميقة مخيفة، تحيط بها أشجار الصفصاف، بأغصانها المبتّلة المتهدّلة كطربوش أبو عبدو صاحب المقهى القريب من بيتي في جبل اللويبدة.

اشترت غادة ثمرتين من فاكهة رأس التنين لنجرِّب مذاقها، والقليل من الكستناء الساخنة، يُحمِّصها في صاج مقعَّر عند زاوية الشارع رجلٌ عجوز. تجولنا قليلاً نستكشف المنطقة، لكنّ رقصاً عجيباً استوقفنا.

على أنغام الموسيقى وقف شاب في الثلاثين من عمره تقريباً، قائداً لمجموعة من الرجال والنساء، معظمهم من كبار السن. أجسام رشيقة بلا كروش أو ترهلات. حركاتهم تشبه رفة طير أو انقضاض حيوان. تناوبت بين السرعة والبطء. لأول مرة أرى هذه الرقصة. فجأة دخل شاب الحلبة، وبدأ يرقص معهم بشكل مثير للضحك.

سألت غادة:

– أليس هذا الشاب أحد زملائنا في الحلقة الدراسية؟

لم تستطع الإجابة نظراً للإضاءة الخافتة في الساحة، فلم نتحقق من هويته.

نظرت إلى يساري ليظهر بقيّة الزملاء، تقدموا صوبنا وألقوا السلام. كانوا في جولة للتسوق وشراء بعض الحاجيات أيضاً. ظل زميلنا المصري تامر في الساحة، يراقص كرشه المتنفخ يقلّدهم حتى انتهوا.

في منتصف الرصيف، في طريق عودتنا، دُسْتُ على منطقة مبلّطة بلون أصفر، وعليها نتوءات بارزة. تساءلتُ عنها. فأجاب مجدي من تونس:

– إنه مسار مخصص للمكفوفين ليتمكّنوا من المشي في الطرقات وحدهم، فيميزون خطواتهم بسبب البروز في هذا الصفّ من البلاطات.

تذكرتُ الشاب الكفيف، صاحب النظارة السوداء في جبل اللويبدة، بالكاد يستطيع المشي بعصاه، يدقها في كل الاتجاهات متحسساً طريقه، منتظراً عطف أحد المارة لإيصاله حيث يريد.

الوجبات تقدَّم في أوقات محددة وثابتة. عدنا أدراجنا لتناول وجبة العشاء. لفحة باردة من الهواء جعلت أطراف أصابعي تتجمّد، ذكّرتني بموعد دوائي، ورعشة يدي تذبذبت لحظةَ مرّت بجانبنا كلاب، تبدأ جولتها المسائية بالمشي مع مالكيها.

بعد العشاء قمت أفرغ محتويات حقيبتي، أتحسس فراغها الذي سأملؤه بالأمل والأحلام. أقفلت اتصالي بشبكة الإنترنت من هاتفي النقال، طيلة فترة مكوثي في الصين. فقط كشكولي أدّون وأرسم فيه ما يجول بخاطري.

الذرة الرفيعة الحمراء

في صباح اليوم التالي استيقظتْ أشجار الحور الأبيض، لتغتسل بماء المطر الأزرق. تنمو بأغصان طرية، تلوح كأعمدة نورانية، ترتفع بها إلى السماء. أوراقها تساقطت على أجنحة الهواء. أتأمل المشهد، ملصقة وجهي بزجاج النافذة البارد. بقع زيتية متفرقة زاهية تشكلت على الأرض بعد أن توقف المطر، وشقشقت الشمس أشعتها بين الغيوم.

انطلقنا جميعاً بالحافلة إلى الجامعة في أول أيام الحلقة الدراسية. اقتربت لأسأل المنسق (شي او دينغ) عن الرقصة الغريبة التي شاهدناها ليلاً. تبسّم وهو يخبرني أنها ليست رقصة، إنما نوع من الرياضات القتالية الداخلية المرتبطة بالطب الصيني، واسمها تاي تشي.

تساءلت داخل نفسي؛ يا ترى هل تفيدني هذه الرياضة في التعافي من آلامي؟

بدأ اللقاء الأدبي بترحيب المشرف (تشيان). رفع نظارته الكبيرة عن أنفه. قدم بصوته الأجش تحية للكاتب الصيني (مويان)، الفائز بجائزة نوبل للآداب لعام 2012، عن روايته (الذرة الرفيعة الحمراء).

تحدث (تشيان) بفخر قائلاً:

– هذه الرواية هي رواية الصين بامتياز. يستعيد فيها طفل صيني حكايات عن أمه وأبيه وأجداده في قرية (دونغ بي). خلال مقاومتهم الغزو الياباني للصين في ثلاثينات القرن العشرين.

وواصل حديثه:

– قد يقرأ المرء كتباً منوعة عن ثقافة الصين وتقاليدها، لكنه لن يعرفها في العمق، من داخل قلوب أبنائها وعيونهم إلا من خلال الرواية، فالرواية تاريخٌ للواقع وتاريخٌ للقلب.

جلستنا الدائرية ساعدتني على اختلاس النظر، إلى يد زميل يجلس جوار غادة. قنصت عيناي المتعطشتان للقراءة نسخة عربية من الرواية، فصممت على استعارتها منه في فترة الاستراحة.

أثناء المحاضرة شردت قليلاً أفكر بأوركيدتي وحالها، بعد أن انكسر جزء كبير من ساقها، عندما فقد تميم صوابه وجُنَّ قاذفاً بها بلا رحمة. اختلاف النبرة من زميل إلى آخر، تنبهني لأعدل جلستي وأعيد التركيز الذي تزحزح. في نهاية المحاضرة قام (تشيان) بتوزيع أدوارنا ليعرض كلٌّ منا ورقته، خلال أيام الحلقة الدراسية. ثم عدنا بعدها إلى الفندق للاستراحة.

أيقظتني دقات متتالية على باب غرفتي. فتحت الباب لأجد غادة. أخبرتني أن الشابين المصريين حازم وتامر وجّها دعوة لجميع الزملاء

لتناول عشاء خاص من تحضيرهما. ثقل رأسي جعلني أتردد في قبول الدعوة، لكن تحت وطأة إصرارها، لم أستطع الفرار.

أغرتني الصفحات الطازجة من (الذرة الرفيعة الحمراء) للتجوال في حقولها، فخلوت مع الرواية، بعد وجبة الغداء على سريري، مع كوب من شاي الياسمين بلونه الشفاف.

خلال فترة الاستراحة، تقدمت من زميلي، حازم طالبةً منه استعارة الرواية، رحب كثيراً، مفتخراً أنها من ترجمة المركز القومي للترجمة في مصر.

تعالت الضحكات. سفرة عامرة بالطيبات امتدت على مجموعة طاولات صغيرة، رُصّت بالقرب من بعضها بعضاً. عبوات معدنية من الفول المدمس طارت من مصر إلى الصين، لنحتفل فيها مع اجتماعنا الجميل. كنتُ قد اشتريت بعض الأطعمة المعلبة قبل السفر. لكن أخرجتها من الحقيبة، في اللحظة الأخيرة.

ميدان السماء

أي شيء تغطسه في الماء سيغرق، سوىٰ قدميّ المتورمتين، أحاول إيقاظهما من الموت داخل دلو بلاستيكي صغير، استطعنا تدبره بصعوبة بعد عودتنا للفندق. لم أكن أعي حجم الانتفاخات فيهما جراء المشي الطويل إلا بعد خلع حذائي ذي الدعامة.

توجهنا في رحلة إلىٰ ميدان (تيان آن من) ومعناه (ميدان السماء)؛ بوابة الدخول الرئيسية للمدينة الإمبراطورية. في الجزء الشمالي من الميدان، ساحة تقدَّر مساحتها بـ440 ألف متر مربع، تُعدّ أكبر ساحة في العالم. المعلومات زودنا بها المنسق (سون) خلال الرحلة.

الأزهار تفترش الساحة بألوانها الحمراء والصفراء الزاهية، كسجادة محبوكة بالجمال، وهي منسقة بأشكال فنية بالغة الإتقان. يحتل الأحمر والأصفر جزءا كبيراً من الثقافة الصينية؛ فالأحمر لحسن الطالع والتبريك، والأصفر احتكرته الأسر الحاكمة في عهد الإمبراطورية، وهو غير مسموح للعامة.

أقذف بيدٍ حبات الفول السوداني المقلي إلىٰ جوف فمي، وباليد الأخرىٰ أقلّب مع غادة صوراً التقطتها بجهازي اللوحي. وثّقتُ بالصور منصةَ

الميدان التي وقف فيها الـزعيم (مـاو تسـي تونـغ) لإعـلان جمهوريـة الصـين الشعبية. طوابير من الناس تصطفّ بخشوع ولهفة لإلقاء نظـرة على ضـريحه الموجود في الساحة.

كما صورّت المدينة المحرمة القرمزية التـي تقـع شـمال ميـدان (تيـان آن من). اللون القرمزي يرمز في الثقافة الصـينية إلى نجـم الشـمال الـذي يسكن فيه الإمبراطور السماوي، وما يقابله على الأرض هو هذه المدينة، التي تُعدّ مسكنه عليها.

توالت الصور، حتى ظهرت صورٌ لزهرتي الأوركيدا في أيامها الأولى في جبـل اللويبـدة. لمعـتْ في ذاكـرتي نظـراتُ تمـيم الممزوجـة بالتعـاطف والشفقة في المطار، معلّقاً طلب زواجه، كثقلٍ في عنق حياتي.

أعلى الخوف

ضبابٌ حليبيٌّ يسحب بأذيال ثوبه الطويل، كفستان العروس فوق قمم الجبال بارتفاعاتها الباعثة على الدوار، يتشابك مع أشجار الدردار الكثيفة والعملاقة التي تمد أغصانها لتتسلّق عليه، ليعود ويتهادى بخيلاء على بساط أخضر، أحدثتْ فيه الصخور الناتئة المنتصبة في كل ناحية بعض الثقوب المتفرقة.

كلما تقدمتْ فينا الحافلة ازدادت كثافة الضباب، ليغيب المشهدُ المرتقب بالكامل.

بعد لحظات أهيم فيها ما بين الضباب والشجر والصخر. ظهر جبلان كبيران متقابلان، يرفعان على أكتافهما الدرجات الحجرية الشاهقة في المدى.. درجات سور الصين العظيم

صعدت الدرجات مع غادة و«لي»، باذلةً جهداً أكبر من احتمالي. ارتفاع الدرجة الواحدة مربكٌ، خاصة مع حذائي ذي الدعامة. نغمة كئيبة تنبعث من وقع أقدامنا على البلاط الحجري الأملس، مع إيقاع أنفاسنا. رجفة تملكت جسدي. أخبرتُ غادة أنني أريد الجلوس على إحدى الدرجات. تلمستُ سماء دعاء ورجاء تدنو نحونا. رأيتُ وجهَيْ أمي وأبي يتتابعان على السماء النورانية، فغسقت عيني بالدمع.

تكفكف «لي» دمعي بحنان، تسألني عن سبب الحزن وسط فرحتنا بإنجاز الوصول إلى هنا. لم أستطع الكلام، فقد حاصرني نحيبي الطويل.

بعد أن تلاشت الرؤى الغامضة، بدأتُ أحدّثها، محدّقةً في سماء شرودي، واهتزازُ حبالي الصوتية يشي بحزن عميق:

– توفي أهلي في عام 2005. إثر تفجير رجل نفسه بحزام ناسف في أحد فنادق عمان يوم 9 تشرين الثاني. جسدي امتلأ بالشظايا والجروح التي أقعدتني فترة طويلة على الكرسي المتحرك.

وواصلت:

– في ذلك المساء المشؤوم، تأخرتُ بصعود درجات الفندق لحضور حفل الزفاف واللحاق بأسرتي، بسبب انقطاع حزام فستاني، فكان حزامي نجاتي، وحزامه هلاكهم.

نبني بأيدينا أسواراً حول أرواحنا ونأسرها بالحزن.

لكنني فوق سور الصين العظيم، صعدت فوق سور مخاوفي، أواجه ضعفي وأنشد حياة جديدة أستحقها.

الحزن كهولة تقضم العمر بأسنان الخوف.

بعد عودتنا من الرحلة، سجلت بكشكولي بارقةَ دعاء: اللهم امنحني القدرة على تغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها، والسكينة على تقبُّل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها، وامنحني الحكمة لأعرف الفرق بينهما.

توالت الأيام ونحن نتابع الدروس، نتسكّع في «المولات» والمحال التجارية، أملأ حقيبتي بكل ما أشتهيه، أبحث عن نفسي لأجد سعادتي، أحضر من الصين أقداراً جديدة، يُكْتَب فيها الخيرُ والسلامُ الداخلي.

إلى الوادي

السماء ضحىً، ديمة صغيرة أنعشت روحينا بمطرٍ خفيف، ونحن نعبر نهر يبلي في قارب خشبي، إلى قرية في منطقة (بشينجاينغ) حيث تسكن جدة «لي»، بعد رحلة بالطائرة. فقد جهزت «لي» من الجامعة الموافقة على إجازة قصيرة.

مقدمةُ القارب باندفاعها، تكشف غطاء النهر من زهور اللوتس البيضاء التي تفترش صفحته الساكنة، تستحثه ليستيقظ من سباته.

لكي نعيش الحياة بألوانها وأحوالها كافة، علينا الاحتكاك بها كما يحتك القارب بالماء، مُصْدراً أصوات الحياة من اللحظات السعيدة والمؤلمة، أما إذا بقينا في سكون وخمول، سنغدو بلا لحن.

ما إن أفاق النهر تماماً، حتى بدأ يراقصنا على موجاته الرقيقة، فراقصناه على وَقْعِ غنائنا لتستحيل الألحان أنهاراً أخرى، تؤجج رؤى الحياة في قلبي الوليد.

سألت «لي»:

– ما هي بقية أسطورة عيد الحب «تسي سي» في الصين؟

أجابت:

– هي قصة حبيبين يلتقيان مرة واحدة في السنة في الجنة. شاب يتيم يرعى البقر أحبته حسناء من السماء، نزلت إلى الأرض لتظفر بقلبه، تزوجا وأنجبا ولداً وبنتاً، اكتشف إمبراطور القصر السماوي الأمر، فأمر بعودتها إلى السماء، لكن الراعي لم يستطع اللحاق بها، تأثر طائر العقعق بقصة حبهما الوفيّ، فطلب عشرات الآلاف من العقعق لتكوين جسر بأجسادها كي يستطيعا اللقاء عليه، في اليوم السابع من الشهر السابع سنوياً.

.

.

حتى الطبيعة انتصرت للحب!

***

هدأ غناء النهر العذب، وبدأ يخفت رويداً رويداً، لينتشر دبيبنا على الثّرى في الغابة، ونحن نمشي الهوينا في تلك البقعة الفردوسية. كان الكون في ابتهال خافت، وكنا نسلك طريقاً لا يعرفها سوى سكان المنطقة.

ما بين أشجار يميس بأغصانها هواء رقيق، وزهور تعبق طيباً، تجلّى بحياء دربٌ ضيق، يشقّ كتل صخور رمادية تحرس الغابة، وتراقبنا عبر تجاويفها العميقة كأيقونات ربانية. صرخات قرود جاء صداها من

جـوف الغابـة، همهـمات حيوانـات بريـة تـدوس الأوراق اليابسـة، وطقطقات ناعمة تشـي ببزوغ براعم جديدة.

وصلنا للدرجات الحجرية النابتـة مـع أشـجار الوسـتاريا، احـدودبت الأرض تحتنا لنرىٰ الفضاء الرحب، كأننا علىٰ ظهر حيوان أسطوري.

كلما ارتفعنا نحو الأفق، واقتربنا من السماء القطنية البيضاء المتوفة علىٰ زرقة القبة السماوية، شعرتُ بخدر لذيذ، ذكّـرني بحضـن«تاتـا» الـذي كنت افترشه بدلال.

ما كـدت أسـتمتع بالنـدىٰ في ذرات الهـواء المسترسـل، حتـىٰ تفاجَأنـا باختفاء الدرجات، وكأنها تبخرت من الوجود. بحركة لا إرادية نظرتُ للخلف، كان الضباب قد نشـر أقنعتـه، وبالكـاد اسـتطعت أن أتبـين موضع قدميّ المـرتجفتين خوفـاً، لتواجهنـا طريـق ضـيقة بـين الجبـل ومنحدر عميق. شعرت بالغثيان وقررت العودة، أمسكتني «لي» بقـوة، شدت علىٰ معصمي، فنفرتْ عروق يدي، وبنظرة حـادة مـن لؤلؤتيهـا السوداوين، قالت بحزم:

– سنكمل الطريق نحو حلم وادي الأوركيدا، لن نتراجع أبداً.

زحفنا علىٰ بطنينا في طريق بالكاد اتسـعت لجسـدينا. أتبـع «لي» بحـذر شديد، تطالعني باستمرار لتتأكد من وجودي. مرت الدقائق ثقيلة عـلىٰ ميزان روحي، رعشة تبعتها خلجة في عمودي الفقري، أقـاوم الألم مـن

مخزون صبري. أتحاشى النظر للأسفل، فلا قرار للقاع السحيق، إلى أن ظهرت الدرجات المتقاطعة مع السحب مرة أخرى لنكمل الصعود.

السحاب لِثامٌ يغطي الجبال، أنفاسنا معلّقة ومشدودة في حنجرتينا بخيط دقيق من خوف وقلق، داخل صدرين يعلو فيهما ضجيج دقاتِ قلبين صغيرين، وما كاد الذعر يلقي بشباكه علينا ليصطاد أرواحنا البريئة، حتى انبلجت أمامنا عينان لامعتان كبريق الأحجار الكريمة، ليَحُلَّ اللثام أخيراً، وتتحرر أروحنا المقيدة لحبل المجهول، فانفلتت منا ضحكةُ نصر بالوصول.

الجدة (آى قو) وكلبها الضخم يقفان بوجوم بانتظارنا، استدارتْ فتبعنا خطواتِها بخشوع وطاعة. تميزت الجدة ببشرة قمحية، وبنية قوية، وشعر شديد السواد، ملفوف على مستوى مؤخرة الرأس، معقود على صورة كعكة هرمية الشكل. لها صدغان أشيبان. ورغم تجاوزها التسعين، إلا أنها تتمتع بنشاط وحيوية لافتين.

منظر الخريف مختلف تماماً في منطقة (بشينجاينغ). أوراق الأشجار تتموج ألوانها بالأحمر والأصفر والبرتقالي، كأن علبة ألوان سكبها الفضاء، من مجراته السماوية نحو الأرض. على أحد جوانب الطريق قطيع من الماعز الأبيض الجميل يثب برشاقة على الصخور والسهل

المفتوح. يقف من حين لآخر يلتفت برأسه ويهزه مرحباً، ثم يواصل العدو واللحاق بنا.

***

ما إن رفعت الجدة يدها للأعلى، تُقَدّم لنا شاي الياسمين، فور وصولنا لمنزلها بأكوابٍ من الخزف المصنوع يدوياً من الصلصال المحلي، حتى ظهر خيط أحمر تربط به إصبع يدها الخنصر. سألتُ «لي» عنه بصوت منخفض.

أجابت:

- إنه أسطورة خيط القدر الأحمر.
- ماذا؟ لم أفهم؟
- تقول الأسطورة الصينية إن الأرواح العليا تربطه حول كاحل، أو خنصر رجل وامرأة مقدَّر لهما الزواج والعيش معاً، وهذا الخيط يتمدد أو ينكمش، ولكن لا ينكسر. بصرف النظر عن الوقت والمكان والظروف، القدرُ حقيقي وموجود بيننا، لكننا لا نرى هذا الخيط.
- للزواج؟
- لا. أيضاً للصداقة والعائلة.
- إذن بيني وبينك خيط القدر الأحمر الذي جمعني بصداقتك!

– أساطير الحب لا تنتهي في الصين.

أخبرت «لي» جدتها عن حلمي بوادي الأوركيدا، بمفردات خاصة بلغتها المحلية تختلف عما تعلمته في الجامعة. تفرست الجدةُ (آيْ قو) نحوي بنظرات، نفذت لروحي مخترقةً ملامحي، فانكسرتْ عيوني للأسفل. كنت توّاقة لمعرفة ما قرأته في صدري. لم تقل شيئاً ولم يظهر على ملامحها أي تعبير. وجهها بدا لي كصنم في معبد قديم.

قامت الجدة لتعدّ لنا وجبة حساء الخندونات، فقد أعيانا الجوع بعد الرحلة الطويلة. والخندونات عبارة عن طعام صيني شعبي، يتكون من كرات عجينية محشوة باللحم والخضار ومطبوخة في حساء. جلسنا نتناوله على منضدة من خشب التوت.

كنت أتأمل بهدوء أركان البيت الريفي بتفاصيله البسيطة، تحيطه أجمات البامبو النضرة الخضراء، إلى أن قطعت الهدوءَ دقاتٌ منمنمة على الشباك. تكاثفت خيوط المطر الخريفي المتساقطة، فسرى البرد في جسدي المرهق واصطكت أسناني. ألبستي الجدة صدريةً من وبر الجمل، من صنعها لتغمرني بالدفء والراحة.

بعد أن بهت رداء المطر وتوقف، انطلقنا ثلاثتنا نسابق الشمس قبل أفولها، في طريق سهلية رحبة. هب النسيم البارد المنطلق من خلف

ستار المطر، بتيار ممتلئ برائحة التراب الرطب، والعشب العطري، أجّج الشوق للّقاء.

ها هو الأصيل مبلّلاً برذاذ بعثره الغروب، من خلال أشعته الأخيرة، أضفى على الوادي صفرة فاتحة نقية، إلى أن انبلج من بين الجبلين، وادٍ مزروع بأزهار الأوركيدا الخلابة، بدت مضيئة لامعة براقة من بعيد، وكأن الأرض مزروعة بالنجوم وحبات الألماس.

انفجر سحر ضياء اللقاء الأول داخلي ليتحول إلى ذبذبة تسري داخل أعصابي المجوفة. هلوسات بصرية وزغللة تملكتني، فسقطتُ مغشياً علي، ولم أعِ ما حدث بعد ذلك.

في الأيام السابقة، اكتفيت بممارسة رياضة التاي تشي من دون استشارة الطبيب، وانقطعت بملء إرادتي عن تناوُل الدواء، فتدهورتْ صحتي.

استيقظت على راحَتيّ الجدة تضغط بأصابعها، على مناطق معينة في جسدي، وبعد أن انتهت شربتُ منقوعاً من أعشاب تزرعها في حديقة منزلها. وبّختني على إهمال صحتي واستسلامي للمرض، بكلمات نصفها فهمته، وبعضه استنتجت معناه من تقاسيم وجهها ولكنتها الصينية العنيفة.

في لحظة الغسق الذهبية تلك الليلة، حرك النهر الصغير خصره محتضناً القمر المضيء الذي راح يسبح نحو الأفق البعيد بخفة وفرح. يعكس سناه الحالم ظلال أغصان البامبو على ستارة النافذة. جلست الجدة قرب النافذة مسدلةً شعرها الطويل خلف ظهرها تغنّي لحناً حزيناً. محيط وجهها نقي، يفصح عن نبل قسماته، ويشي بجمال حسي مشفوع بمهابة، جعلتني غير قادرة على إزاحة عيني عنها، إلى أن تملّكني النعاس.

في حقل الأوركيدا

في الصباح استيقظتُ بنشاط وحيوية. اتقينا الشمس وأشعتها المجنَّدة بارتداء قبَّعات القشَ مخروطية الشكل. قررنا تناول وجبة الإفطار، عند جد «لي» الذي يتناوب مع الجدة العنايةَ بحقل الأوركيدا. فهي حبُّهما المشترك. طرنا على جناح النسمات العليلة، إلى الحقل مع سلة الطعام.

سألتني الجدة بحدة:

- لماذا ترتدين هذا الحذاء العجيب؟!

- تعرضتُ من سنوات لحادث، تسبب بدخول شظايا في عظم قدميّ. أُجريت لي عمليات عدة، أُجبرت بعدها على ارتدائه.

هزت رأسها وواصلنا الطريق، وبريقٌ من عينيّ عنقاء يفلت منها بين حين وآخر. غمزتني «لي» وأخبرتني أن جدتها لا تقتنع بالعلاج الحديث، وترى في الإبر الصينية وبعض الرياضات الخاصة، جدوى أكبر في الشفاء.

سألتها:

- هل تستطيع أن تعالجني؟

- أكيد يا عزيزتي!

بدا الجبلان من بعيد ككفّين متلاصقتين، كلما اقتربنا أكثر انفرجَا ليظهر من بين حناياهما أرض امتلأت بالأزهار النّدية، اندفعتُ بخطواتي المتأرجحة نحو الحقل، لكن الجدة رفعت عصاها أمامي، ومنعتني من الاندفاع، وطلبتْ أن أتريث.

أحسست بالفتور. مشيت بهدوء مفتعَل، ومن غير حماسة خلف «لي»، وقهرت دمعة حاولت أن تفرّ من عيني من شدّة الغيظ.

قالت «لي» تعاتبني:

– جدتي لا تقصد مضايقتك، كوني حليمة.

وصلنا الحقل الذي يضمّ أقساماً عدة؛ كل قسم فيه نوع معين من الأوركيدا مسوّر بطوبات حجرية. نمشي بحذر خلف الجدة في خط مستقيم.

يا ربي! كل الشوق واللهفة والانتظار للقاء الأوركيدا، لتلمُّسها، استنشاق عبيرها، ضمّها وتأمّلها، وما إن أصل إليها أعاملها بكل جفاء ولا مبالاة!

كان زوج الجدة ينتظرنا في ساحة الكوخ المزروعة بأشجار الأكاسيا والعناب، يجلس على كرسي الخيزارن، ملوّحاً بمروحة من جريد النخل.

بعد الجولة الفاترة حول الأزهار، طلبتُ منا الجدة أن نساعدها بطحن الأرز، استعداداً لصنع كعك الفجل والكعك الحلو الأحمر. الجدة تدفع الطاحونة الحجرية بيدها الصلبة، بينما نضع الأرز أنا و«لي» في فتحتها المقعرة. بقيت طوال اليوم أشعر بالحنق على الجدة، ونمت ليلتها من دون تناول وجبة العشاء، طامرةً رأسي تحت الأغطية.

***

في اليوم التالي عندما وصلنا الحقل، وقفتُ أتأمل الأزهار، ألمسها بعيني، رموشي يدٌ حانية عليها، فالشوق أضناني.

بنبرةٍ جادة أمرتني الجدة:

– اخلعي حذاءك واقتربي من الحقل كي تساعديني.

اعتصرت يديّ المتعرّقتين خوفاً، غير مقتنعة بما طلبته. وجّهت نظراتها نحوي بثبات، فارتعدتُ فرائصي ونفذتُ أمرها.

ترددتُ كثيراً قبل خلع الحذاء. خشيتُ أن أسقط، ولا أتمالك توازني الضعيف. أخذ الوحلُ اللزج يدخل بين أصابع قدمي المتخلخلتين، وأنا أغوص في الأرض الرخوة.

أتكئ في الانتقال على الدعامات الخشبية المغروزة في التربة، حيث تثبت عليها ساق الأوركيدا، بعد إخراجها من تجويف ثمرة جوز الهند، إذ تُزرع زراعة أولية فيها قبل نقلها إلى الأرض.

النحل وبعض الحشرات، حامت بشكل مفرط حول الحقل، في عملية التلقيح المستمرة. الخوف من أن تلسعني إحدى الحشرات أربكني، فأخذ هسيس أذني يتواتر بشكل كبير. وقعت في الوحل، زافرةً تنهيدة ضجر من صدري.

رمقتني الجدة بنظرة ثاقبة، أمسكتني من يدي وغادرنا الحقل، دخلنا الكوخ الصغير، أحضرتْ دلو ماء، أذابت فيه حفنة من الملح. وبكلمات آمرة قالت:

- نظّفي الأرضية.

وقفتُ مشدوهةً من الموقف الغريب الذي وضعتني فيه. بعد دقائق دخلت «لي» لتساعدني. لم نتحدث بتاتاً. أخذنا ننظف الأرضية بإذعان تام. كلما انتهينا تأمرنا الجدة أن نعيد التنظيف مرة أخرى. أُبَدِّلُ الفرشاة ذات المقبض الخشبي من اليد اليمنى إلى اليسرى بالتناوب، والعرقُ يتصبّب مني.

بعدها أمرتنا الجدة بالتوجه نحو البحيرة والاغتسال.

لحظةَ أن رششتُ جسدي بماء البحيرة البارد، سمعت صوت عاشقة الجبل يتأجج في الكون نقياً صافياً، بعد انقطاعها عني لأيام. انعكاس وجهينا على سطح البحيرة، أنا و«لي» مزقته أيدينا أيّما تمزيق عندما أخذنا نلعب بالماء.

بعد يوم مُضْنٍ من العمل، قامت الجدة بوخز جسمي، بمجموعة من الإبر الصينية. أمرتني بالمشي من دون حذاء والألم يفترسني من كل الجهات.

سألتني الجدة بحدة:

– قرري ماذا تريدين.

لم أتمالك نفسي، وجلست على الأرض أحبو، فلم تعد ساقاي تتحملان رفعي، من دون حذاء. الجدة تعتقد أن الحذاء وهمٌ من صنع خيالي العاجز. تريد أن أتخلص منه وأعود طبيعية.

أن تشتري الأوركيدا من أحد المتاجر، سعيداً بالحصول على زهرة خالدة الجمال، مسحوراً بشكلها المميز، ومنبهراً بألوانها الغريبة، متعلقاً بأبجديتها الطبيعية الفريدة شيء، وأن تبدأ باكتشاف طبيعتها وطريقة زراعتها والعناية بها، شيء آخر مختلف تماماً ومعقد أحياناً لأنه يحتاج لتركيز وحبّ، لكن لا يلبث الأمر أن يصبح مألوفاً وفيه متعة.

فعمر الزهرة النابتة على الساق يتراوح ما بين 7 إيام و14 يوماً. ووجود وادي الأوركيدا، في المنطقة الواقعة في الظلين المتقاطعين للجبلين، يضمن وجود أشعة غير مباشرة من الشمس. فالأوركيدا تحتاج إلى الكثير من المياه.

كان صباحاً ثقيلاً، يومَ استيقظت في أحد الأيام، وشعرت بشيء جاثم على صدري لا أستطيع فك رموزه الغريبة. لم أرغب بالذهاب للحقل، وأصررتُ أن أبقى في منزل الجدة. طوال الليل لم أنم، شعرت بقدميّ، داخل قالب من ثلج يأبى الذوبان. أرتجف وأفركهما، محاولةً التخلص منه لكن بلا جدوى.

هل يُعقل أنني مللت من الأوركيدا وزارني ضيفٌ ثقيلُ الظِّل من الفتور والملل؟

هل حبّي لها باقٍ؟

***

في مساء آخر ليلة، أعدّت الجدة عشاءً فاخراً من بطّة المندرين في حفل خاص جمعَنا على ضوء الشموع. استعددْنا للانطلاق في رحلة العودة إلى بكين، والالتحاق بالمجموعة. أعصابي مسترخية، وكأنها راقدة على مقعد مريح، وسعادة هادئة لذيذة أتلمَّظها من ذاكرتي الممتلئة بالفرح.

ناولتني الجدة هدية صغيرة. شكرتُها كثيراً على استضافتها، ووعدْتُها أن أتخلص من حذائي الذي تمقته، وأن أقاوم آلامي بعيداً عن المسكنات. أن أضحك على حذائي، لا أن أبكي وأتذمر منه! فانشرحتْ التجاعيدُ حول عينيها فرحةً بي، وحضنْتُها ملءَ الحبِّ وجماله.

أشواق

منذ وصلنا إلى بكين، بعد رحلتي برفقة «لي»، وأعصابي كأوتارٍ مشدودة بطريقة تفوق احتمالي على مزاجٍ من قلق. أعزف بلحن نشاز، جعل الجميع ينفر مني. كلما مَرَّ يومٌ، انقطع وترٌ من تلك الأعصاب المهترئة.

أُجهز حقائبي استعداداً للعودة إلى الأردن. بلا حُبٍّ من أقصى الشرق.

في المساء الأخير هبّت رياح شديدة، حرّكت الأسلاك الكهربائية المتمددة بين الأعمدة. صوت ارتجاجها يشبه صفارات ينفخ فيها ساحر، داخل فؤادي الأجوف.

خرجتُ تائهً بلا وعي إلى الشارع أبحث عن «تاتا»، عن شوارع جبل اللويبدة، رهف، خالتي هيام، جامعتي، راشد، تميم..

لا أحد.. لا أحد..

قطرات المطر، سلاسل معدنية براقة تنهمر على جسدي بجنون، ليصدح بصرخات متوحشة مذعورة. ظلت شفتاي تتحركان لرشفِ ما سال عليهما من ماءٍ مطري.

انزلقي انزلقي أيتها القطرات الشاردة، وبدّلي أوتاري بوترٍ رنينُه يشدو بالحب.
ذبتُ وسط الخيوط المطَرية الكثيفة. أتحول إلى خيط رفيع من المطر، وأنسج ثوباً ناعماً كقطعةِ حرير تصلُ ما بين بكين وجبل اللويبدة.

كل هذه المباني والمحلات أمست صمّاء لا تَطْرَبُ لصوتي. الشوارع عمياء لا تميزني من بين المارة. الأبواب موصدة. النوافذ جامدة كصخرة قاسية. لا شيء في المدينة أعرفه ويعرفني. أنا رقمٌ مجهول لا تُفكُّ طلاسمه إلا في مكان واحد.

.

.

أريد مدينتي، أريد جبل اللويبدة.

***

«المدن كالأحلام، وما يبهرك في مدينةٍ ما ليس روائعها السبع أو السبع والسبعين، بل الجواب الذي تعطيه عن أحد أسئلتك»

إيتالو كالفينو

الأوركيدا الحكيمة

أبحث عن فكرةٍ أضعْتُها داخل رأسي.
جلستْ صديقتي الصينية «لي»، إلى جواري في الحافلة التي أقلّتنا إلى المطار. تحدثني، لكن ذهني انشغل بأمر ما لا أعرف ماهيته، شعور قوي تملّكني بفقدان شيء.
وداعٌ ودموعٌ، وعدٌ من «لي» بزيارة الأردن في أقرب وقت، حجوزات وحقائب، تفتيش وبوابات، مقاعد ومضيفات، ظلامٌ عميق في الطائرة، إقلاع نحو مطار الدوحة الدولي.
مددتُ يدي بخفّة لأنير المصباح الصغير فوق رأسي. أتأمل هدية جدة «لي»، قلادة دائرية مرسوم داخلها، قوسان متعانقان باللون الأبيض والأسود، ترمزان لمفهوم الين واليانغ. قلادة تمثل الكون الذي يجمع المتضادات: الذكر والأنثى، الليل والنهار، النور والظلام. حتى الإنسان مخلوقٌ هجين، يتعانق فيه النور والظلام.
تجلى من بين غياهب الظلام نورٌ جمع أفكاري المبعثرة، فأدركتُ ما كانت تقصده جدة «لي» في حقل الأوركيدا. فقد شعرت الجدة بأفكاري المشوشة، بسبب شرودي الدائم في الحقل، فدفعتني لأمور كنت أتعجّب منها. قمتُ أصيد المشاهد والصور وأنثر فيها الحياة، وأخرجت كشكولي من حقيبة يدي، لأدون الأفكار المسترسلة.

ندمت في حياتي على أمور، سرتُ خلفها بشغف وحماسة، دون إعطائها طولَ تفكير. عصا جدة «لي» التي أشهرَتْها في وجهي، في حقل الأوركيدا، علّمتني التأني وعدم التسرع، حتى لو كنا أمام الحب الذي نحلم به.

***

غاب عني صوت عاشقة الجبل لأيام، لكن لحظةَ أن اغتسلتُ بماء البحيرة الصافي، تجلّت بهيئتها ونورها لأول مرة بعد أن تجردتُ من شعور عدم الرضا، عن أحداثٍ مضتْ في حياتي.

كانت السحب المجنَّحة، تحمل قمراً منيراً في ذلك المساء الهادئ، ترفل العاشقة في ثوب أبيض، تشكّ شعرَها المسترسل الذهبي بزهرة أوركيدا، تتناثر منها النجوم، في حقل السماء الخصب بالنبوءات.

كلما اقتربتُ مني، بدت شفافة لامعة بلّورية المنظر، حاولتُ لمسَها لكن لم ينلني سوى شذى وعبير اشرأبت له روحي، وغدوتُ كهدبٍ ترمش به.

لن نستطيع الامتلاء بالحب، والشعور بملذاته الروحية، إلا إذا تسامحنا مع ماضينا وتجاربنا السابقة. أن تنقّي القلب بمرهم التسامح والغفران. تتأكد من براءة قلبك من السخط. لتتلألأ من جديد كنجمة وليدة معلّقة في كون منسجم.

***

بدأت الجدةُ تنقلني من مرحلة التعلّق بالأوركيدا إلى مرحلة اكشاف زراعتها وأجواء طبيعتها.
وكذلك هو الحبّ.
الحبُّ تحرّرٌ من العزلة النفسية، عملية دائمة ومستمرة الحركة لا تتوقف.
حاولتْ الجدة كسر قوقعتي الذاتية، أخرَجْتني من حذائي المتحجر. غصتُ بقدمَيَّ وتعلمتُ بيدي كيف أعتني بها وأعرف طبيعتها. ما تحب من ضوء وظل ورطوبة دائمة لجذورها. مع مرور الأيام، بدأت أتكيّفُ معها وأحرص عليها أكثر، وهي تبادلني الرعاية بأريجها الفوّاح وتقبّلها للمساتي الحنونة.
كلما تأملت مثاليتها وإتقان خلقها الفائق، أدركتُ أكثر أن العلاقات الإنسانية ليست مثالية. بل يشوبها القلق، الحيرة، البعد، الهجر، القرب والألفة. نسعى لكمالها وإتقانها، لكن لا مفر من اهتزازاتٍ في مسارها.

***

خلدتُ للنوم، فالرحلة طويلة. اسيقظتُ قبل الهبوط في مطار الدوحة بقليل. تسكعت مع غادة كالعادة، في السوق الحرة قبل أن يأتي موعد الطائرة التي ستنقلنا إلى عمّان.
إعلانٌ في السوق عن عطرٍ فرنسي تتوسطه زهرة كبيرة، ذكّرني بجدة «لي» عندما كانت تطلب مني أن أحدّق في قلب الأوركيدا كلما رأتني

شاردة. تدخلني في طقوس غريبة فتجلّت في نفسي حالة نورانية وهالة من الجلاء، بعد تأمل لونها، تحسس ملمسها وانتظام بتلاتها وتلذذ برائحتها. تريد مني أن أرى ذاتي وأتأملها.

بعدها أصبحتُ أكثر هدوءاً وبدأت أتخلّص من عادة القلق وأتمتع بقدر أكبر من الطاقة والحماسة. فالمعرفة الذاتية هي الخطوة الرئيسية على درب الولوج إلى الذات لتحقيق السعادة. أن تنظر إلى النكسات على أنها فرص لتنمية الذات والرقي الروحاني.

سر السعادة بسيط، ابحثْ عما تحب فعله حقاً ثم وجِّه طاقاتك تجاهه.

***

سحبتني غادة لنصعد الطائرة المتوجهة إلى الأردن. ما إن لمستْ عجلاتُها أرضَ مطار الملكة علياء الدولي، واحتكّت بقوة لتتوقف، حتى قفز طلب تميم إلى مخيلتي.

حبُّ تميم لم يُخرجني من قوقعتي، ولم يولّد داخلي طاقة كبيرة لينتزعني من ذاتي.

ليس التقدير والاحترام مبرراً للحب والارتباط. الحبُّ لذات الشخص.

إنه الثلج

حقائب وتفتيش. بحثتُ مع غادة عن بوابة الخروج، وانطلقت سيارة أجرة بنا بسرعة.

سلامٌ عليك يا جبل اللويبدة
سلامٌ عليكِ أيتها الأغصان العارية في وجه الشتاء القارس
سلامٌ عليك أيتها الذكريات الحزينة
ما أعبق النسيم البارد!
وما أنقى الضياء!
وما أجمل الشمس باختبائها خلف الغيوم الحبلى بالثلج!

طرتُ نحو منزل «تاتا» في شارع ابن حزم الأندلسي.
قَرِّب المسافاتِ أيها الكون!
المسافةُ خطٌّ وهميّ بين نقطتين.
لكنني مع «تاتا» عند النقطة نفسها في وجداني.
في طريقي أُلملم الشوقَ زهراً نضراً من أمام البيوت، أسماء الشوارع، زقزقة العصافير، نشيد الأشجار، شجن النسمات، وأبواق السيارات.
وأنثره داخلَ فؤادي.

أشدُّ المعطف أتّقي أنفاس البرد.

لم تكن «تاتا» في البيت، أخبرتني الخادمة أن الجميع في مستشفى لوزميلا. لم أصدّق أذني، طرت نحو شارع محمد إقبال غرب جبل اللوبيدة.

كانت ممددة بهدوء على السرير والممرضة تقيس لها مستوى الضغط، اقتربتُ من اللوحة التي عُلّقت على طرف السرير، لأقرأ عن حالتها الصحية المتدهورة.

جلست قربها أناجيها: «تاتا» حبيبتي، لقد وصلتُ اليوم، أنا فتاة جديدة قوية كما تحبين أن تريني.

تجربةٌ سيئة مررتُ بها لن تكون هي الحياة كاملة. سأتحدى يأسي بالأمل والصبر. وسأساعد غيري بعد تجربة العلاج. «تاتا» أرجوك لا تتركيني وحدي.

أخذتُ أقبّل وجهها، أشهق بأنفاس مخنوقة. جاء الخال مصطفى ليرفعني عن الأرض، فقد تكورتُ كجثة قربها. لحظتَها انهرتُ، ولم تعد قدماي تسعفانني لأنتصب. خرجتُ وجلستُ في غرفة الانتظار.

رنينٌ لحوح من هاتفي، خالتي هيام على الخطّ تطلب مني العودة للمنزل. تعجبّتُ أنها لا تدري بحالة «تاتا». أوصلني الخال مصطفى إليها.

أيُّ مفاجأة كانت تنتظرني.

البيت مفروش بأزهار الأوركيدا.

في جميع الزوايا، كلما التفتُّ وجدتُ باقات الأوركيدا تحيط بي، انهمر الدمعُ السخيُّ من سحابة عيني.

أشباهُ خيالاتٍ لأشخاص يقفون حولي. الغريب أنهم يبتسمون.

وقفتُ وجهاً لوجه مع تميم، أحسستُ بهوة كبيرة بيننا، لم أنطق بكلمة، زادت الفجوة بيننا كحفرة عميقة، بدا غريباً لا أعرفه.

تراجعتُ للخلف، شعرتُ أن باقات الزهور تتدحرج على الأرض، وخرجتُ للشارع.

إنه الثلج..

ريش السماء الطاهر،

تمتلئ به وسائدَ الموتى، لينثروه علينا، ليوقظوا الغفلة من قلوبنا.

الثلج بوابة الذكرى لهم.

ندفٌ رقيقٌ في هبوطه،

يكلّل الأرضَ ببساط كبير يتسع للجميع.

أحمل قدميّ في حذائي الثقيل، أدفعهما بين الثلوج بإصرار،

أتحسس دائماً أرواح من رحلوا عنا مع نزول الثلج.
أبكيهم دوماً،
هم ينثرون لونَ أكفانهم علينا، ليذكّرونا بأنفسهم، وبحضورهم الدائم والواضح، يراقبوننا من سمائهم عند سدرة المنتهى.
فلونُ الثلجِ والكفن واحد.
لكن أيهما سرق اللون من الآخر؟!
حضور الأرواح الغائبة قويٌّ مع البياض،
حضورٌ خفيٌّ في تسلله، رقيقٌ برقة الثلج، يجثو على الروح من فرط الشوق لهم..
تدغدغ بلوراتٌ ثلجية أنفي الأحمر، بالكاد أستطيع التنفس.
بشهيق أطول من الزفير
أقف مبهورة بالكفن الأبيض المفروش على المدى.
هل حان الوقت لأمتطي جواد الموت أم بعد.
طالت وقفتي هناك. كساني الكفن الثلجي.
لم أعد أشعر بالبرد. أحس بالدفء في جوفي.
يا رب نَقِّني من خطاياي كما تُنقِّي الثوب الأبيض من الدَّنس.
يا رب اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَد

***